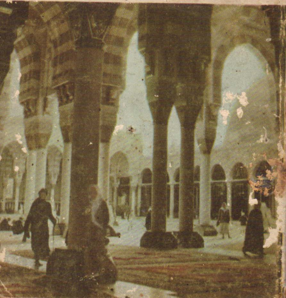
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

العرب

تاريخ وحضارة

أنتوني ناتنج ● محمود مسعود



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٠ — ربيع الاول ١٤٠٠ — فبراير ١٩٨٠

No. 350 — February 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى — ١٢ عددا — في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادي · وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى · وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى ·

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج· م· ع· بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

العرب
تاريخ وحضارة

•

تأليف: أنتوني ناتنج
ترجمة: محمود مسعود

•

دار الهلال

•

الجزء الثاني

القسم الرابع :

المحنة والنصر

الفصل الخامس عشر

الحروب الصليبية

فى شهر نوفمبر عام ١٠٩٥ وفى بلدة كليرمون بفرنسا ، ألقى البابا اربان الثانى خطابا شديد اللهجة استجابة للنداءات المحمومة المتكررة من الامبراطور البيزنطى بطلب المساعدة لطرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى . وفى هذا الخطاب تقدم البابا خطوات ابعد وحث كافة المسيحيين على القيام والمسارعة لا الى الاناضول فقط بل كذلك الى بيت المقدس لاستخلاص (القبر المقدس) من (الجنس الشرير) وكان القاء هذا الخطاب الخطير مواكبا لقيام الفرنجة برد العرب على اعقابهم فى اسبانيا واستعادة النورمانديين لجزيرة صقلية . ولكن أوروبا المسيحية كانت الآن بسبيل تحدى الاسلام فى عقر داره ، وكان خطاب كليرمون يرن صداه فى الآذان عندما أبحر مئة وخمسون الفا من الفرنجة والنورمانديين والبنادقة وأبناء جنوا فى اتجاه الشرق فى أولى الحملات الصليبية .

والواقع ان كلمات البابا اربان النارية قدر لها أن تكون ابعد أثرا من قيام تحالف مسيحى لانتزاع بيت المقدس من سيطرة التعصب الفاطمى . فعلى الرغم من انه لم يكن بوسع أحد ان يتنبأ وقتذاك بما سوف يكون ، الا أنه كان مقدرا لها أن تستهل حربا دامت مائتى عام ،

و،ن تزود العالم الاسلامى بما يلم شمله ويوحد هدفه على نحو لم يعرفه منذ ايام الفتوحات الكبرى . وبغير هذا التحدى من جانب دين وجنس اجنبى ، فربما كانت الروح النضـالية والاحساس بالمصير لدى المسـلمين قد تعرضت للانطفاء فى خضم المنافسات التافهة والحروب الأهلية ، مما كان يمكن أن يترك العالم الاسلامى بغير مصدر للمقاومة حينما هبط عليه الخطر المغولى بعـد ذلك بمئة وخمسين عاما . ولكن الحروب الصليبية اتاحت قيام صلاح الدين . وجاءت انتصارات صلاح الدين فيما بعد على الفـــرنجة نبراسا للسلطان بيبرس المملوكى للاجهــاز على الصليبيين بصورة نهائية ورد المغول على اعقابهم ، وبهذا انقذ الدين الاسلامى وظفر للعالم العربى بقرنين ونصف قرن من الاستقلال النسبى .

وفى اول الامر افاد الصليبيون من مزية المباغتة وسارت الامور كما يشتهون . فقد انضمت قواتهم الى جيوش البيزنطيين فى القسطنطينية فى ربيع عام ١٠٩٧ واحتلوا نصف آسيا الصغرى قبل بداية الصيف . ثم تدفقوا الى طرطوس ، واقتحموا انطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر . وقد ساعدتهم فى هـذه العملية مساعدة كبرى الجالية المارونية التى كان الوالى السلجوقى قد طردهم منها . ومن انطاكية واصلوا الهجوم الى فلسطين ، تاركين فى أعقابهم على ما يحدثنا ابن الأثير مئة الف جثة لقتلى المسلمين .

وفى السابع من شهر يونيو عام ١٠٩٩ ضربت الجيوش الصليبية المشتركة وعدتها أربعون الفا الحصار على بيت المقدس التى كان دفاع الفاطميين عنها محفوفا بالمخاطر . وقد استطاعت الحامية المصرية القليلة التى لا تزيد على

الف من الرجال الاشداء الصمود وصد العدو مدى خمسة اسابيع ، الى ان تمكن هؤلاء فى الخامس من شهر يوليو من احداث ثغرة فى سور المدينة الشمالى تدفقوا منهـا الى بيت المقدس .

وعلى الاثر بدأت مذبحة من ادمى واقسى المذابح فى التاريخ . ومع انه لم تتهيا ارقـام موثوق بها لمجموع المسلمين الذين لقوا حتفهم ، فقد ذكر ابن الاثير أن نحو سبعين الفا ذبحوا فى المسجد الاقصى وحده ، كانوا كلهم من غير المحاربين وبعضهم من الائمة وعلماء الدين ، الذين التجأوا الى ما يعد فى نظر قوانين الحرب الاسلامية حرما آمنا . وقد ايد المؤرخون المسيحيون هـذه الرواية ، وافاض بعضهم فى وصف الفظائع التى ارتكبت من تفنن فى القتل والتمثيل بالجثث والتعذيب والحرق .

ولقد استمرت هذه المجازر الدموية اسبوعا كاملا ، فى عملية تقتيل وتذبيح شملت النساء والاطفال والشيوخ والشباب والجنود والمدنيين والعرب واليهود ، لم يشهد لها التاريخ مثيلا الا فى الغزوات المغولية ، وبعد ان روى الصـليبيين تعطشهم للدماء شرعوا فى تدعيم موقفهم . فالذين جاءوا فقط لاستعادة الاماكن المقدسة المسيحية لسيطرة المسيحيين ما لبثـوا ان قفلوا عائدين الى بلادهم . ولـكن عددا وافرا اقاموا واسـتقروا فى فلسطين ، ذلك لانه من بين الجيش الجرار الذى لبى نداء البابا اربان ، جاء العديد من القادة وفى نيتهم وضع اليد على امارات يحكمونها ، واستهدف البنادقة وابناء جنوا تنمية مصالحهم التجارية ، فى حين كان الشغل الشاغل للدهمـاء منهم مجرد الفرار من الفاقة وقذارة العيش فى فرنسا وايطاليا . وقد وقع الاختيـار على

جودفرى اف بويون القائد العام الصليبى ليكون ملكا على الدولة اللاتينية لبيت المقدس ، واقترن الاحتفـــــال بتنصيبه بالاستيلاء على حيفا ويافا الساحليتين بمساعدة أسطول البندقية . وتلت ذلك مذبحة بشعة أخرى حينما دعى سكان وحامية حيفا من قبل المنتصرين للتجمع حول صليب كملاذ للأمان ، ثم ذبحوا تذبيحا . ولقد استغرق العالم الاسلامى اربعين سنة او اكثر لتعبئة جيوشـه للتحرير ، ولكن هذه الفظــــائع ، وخاصة مذابح بيت المقدس التى ارتكبت فى شهر رمضان المعظم ، لم تجـد قط سبيلها الى النسيان أو الصفح من جانب العـــالم الاسلامى كافة .

وفى السنوات التى تلت ذلك قتل جودفرى فى المعارك، وعندما أصبح أخوه بلدوين ملكا شدد الصليبيون قبضتهم على سواحل الشام وفلسطين ، فاستولوا على قيسارية وبيروت وصور وصيـدا وجبيل وطرابلس ، واستهدف سكانها للقتل أو التعذيب للتخلى عن ممتلكاتهم . وبحلول عام ١١١٠ كان ملك الفرنجة هو الحـــاكم المطلق ، وكان مكروها فى كل مكان ، من انطاكية حتى العقبة . وقد قسمت الأراضى التى يسيطر عليها الى ثلاثة أقسام : مملكة بيت المقدس ، التى امتدت من بيروت الى العقبة ، وامارة انطاكية ، التى امتدت من اللاذقية الى حـدود ارمينية ، ومقاطعة طرابلس . ولـــكن الفرنجة بتقسيم فتوحاتهم على هذه الصورة قد نكثوا بما تعهـــدوا به للأمبراطور البيزنطى من السماح بعودة انطاكية الى الروم ثمنا لمساعدتهم لهم . وهكذا عاد الروم الى آسيا الصغرى وهم يجترون حفيظتهم ، تاركين حلفـاءهم الفرنسيين الغادرين يعملون بغير عون منهم . وما لبث الفرنجة ان استقروا فى الاراضى التى غزوها كما فعل المستعمرون

الفرنسيون فى الجزائر فى القرن التاسع عشر ، وكثيرا ما كانوا يغتصبون لانفسهم كل متر مربع من الارض ويجردون الفلاحين من كل شىء ، ويكرهون النساء العربيات على الزواج المختلط والخروج على دينهن .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الفظائع وأعمال النهب والسلب التى ارتكبها الصليبيون ، لم يرتفع اصبع واحد فى بغداد لمد يد النجدة الى فلسطين أو الشام . وفى مصر احتفظ الوزير الفاطمى الافضل بجيشه فى البلاد ، ولم يزد عن ارسال اسطوله أحيانا لمناوشة الاساطيل الصليبية المحاصرة للمدن الساحلية . ومع ذلك فان الأراضى التى سيطر عليها الصليبيون لم تكن بمنجاة من الهجوم والضرب اذا انقضت عليها قوات برية بعزم وتصميم ، بسبب افتقارها الى أى دفاع فى العمق . فباستثناء الرها فيما وراء نهر الفرات فى شرق ارمينية ، وبيت المقدس ، كانت جميع البلدان والمدن فى أيدى العرب . ذلك لأن دمشق وحلب وحمص وبعلبك وحماة لم تستهدف قط لأى تهديد خطير ، دع عنك غزوها الفعلى ، وكانت تشكل سلسلة قوية من القواعد لأى هجوم مضاد ضد عدو لا يبعد عنها بأكثر من مسيرة يوم . ولكن لم يزحف احد من عاصمة العباسيين . وحتى عندما سقطت بيت المقدس وذبح سكانها فان الوفد الذى سعى الى الخليفة لطلب النجدة وجد كل من كانوا فى بغداد يبكون ولكن لا احد منهم يتقدم لشن الحرب بسبب ما أصاب أخوانهم . ان الأتراك السلاجقة الصناديد فى الماضى قد خانتهم الشجاعة للقتال ، الا فيما بين بعضهم مع بعض . ولعل الصورة تبدو على أوضحها فيما أورده ابن الاثير ، من أن الفرنجة قد ظفروا بفتوحاتهم بسبب الانقسامات التى كانت قائمة بين المؤمنين ، فان الجيوش

الاسلامية وقادتهـــا كانوا فى حروب دائمة بعضهم مع بعض ، وكانت اتجاهاتهم متعارضة ، واهدافهم متشعبة، ومواردهم المالية مبددة .

وكانت النتيجة ان مقاومة المسلمين ظلت مقصـورة فى مدى نحو خمسين عاما على غارات فردية من جانب القبائل العربية التى كانت اعدادها واسلحتهـــا بادية العجز ازاء معاقل الصليبيين المنيعـة . ولكن احتكار الصليبيين للقـــوة ما لبث فى عام ١١٤٤ أن تلقى ضربة عنيفة حينما قام عماد الدين زنكى حاكم الموصل بمحاصرة الرها الموقع المتقـــدم الشرقى للصليبيين والاستيلاء عليها . وبهـــذه الضربة العنيفة أزال المسلمون الاسفين المسيحى بين الشام والعراق . وفضـــلا عن ذلك فـان انتصار زنكى كان ايذانا ببداية النهاية لحكم الصليبيين فى فلسطين وغرب الشـام ، وبدء العمـــــل لتحقيق ثأر المسلمين الذى قـــدر أن يتم بانتصارات صـلاح الدين الايوبى .

والواقع ان عماد الدين زنكى قد أغراه انتصاره بالعمل على تأسيس مملكة لنفســــه على حساب الســـلطنة السلجوقية المتهاوية ، وقد نجح فى اقنــــاع السلطان بمنحه تعويضا للعمل فى جميع أنحاء الشام ، الأمر الذى مكنه من دخول حلب ثم حماة ثم بعلبك . واذا كانت مطامعــــه قد توقفت باغتياله فى عام ١١٤٦ ، فان ابنه وخلفه نور الدين الذى كان فى مثل دهاء ابيه قد ظفر فى عام ١١٥٤ بالسيطرة على دمشق ايضا بعد ايهام أهلها بأنه جاء لانقاذهم من هجوم قريب للفرنجة . وقد عمل نور الدين على توسيع امبراطورية ابيه على حســـــاب الصليبيين ، حتى لقد تمكن فى مدى عشر سنوات من

السيطرة على الشام كلها ، باستثناء انطاكية .

لكن . بينما كان نور الدين يكتسح كل شيء امامه فى الشمال ، **كان الفرنجة يبداون تهديداً جديداً فى الجنوب .** فان عسقلان القاعدة البحرية للفاطميين شـــمال غزة سقطت فى ايديهم ، مما فتح امامهم الطريق الى مصر . وفوق هذا كله فان (املريك) ملك بيت المقدس الجديد اراد امتلاك مصر ، حتى ولو كلفته انطاكية. بيد ان املريك لم يكن وحــده الذى يريد مصر ، اذ كان نور الــدين يشتهى بدوره ان يضيفها الى ممتلكاته ، وبوصفه سنيا متحمسا كان يريد القضاء على الخــلافة الفاطمية فى القاهرة وعلى هرطقتها الشيعية . وقد سنحت له الفرصة فى عام ١١٦٤ حينما التجأ اليه فى حلب وزير فاطمى مخلوع يدعى شاور لـكى يعيده الى منصبه بثمن هو ثلث موارد مصر ، مع الاعتراف لنور الدين بالسيادة . وبعد الموافقة على الصـفقة ارسل نور الدين جيشا بقيادة اكفأ قواده وهو أسد الدين شيركوه ايوب .

كان شيركوه واخوه نجم الدين ايوب من عائلة كردية فى شمال العراق وقد خدما طويلا حكام الموصل وحلب . ولكن حملته الى مصر مع شاور كادت تقضى عليه . فبعـد أن هزم الوزير الحاكم وأعاد شاور الى مكانه ، نكث هذا بعهده لنور الدين ورفض الاعتراف له بالسيادة . فكاد رد شيركوه ان احتل بلبيس على دلتا النيل لكى يجعل منها قاعدة له ، واذا بشــاور يستنجد بالصليبيين ويغريهم بالمال ، ولم يكن (املريك) بحاجة الى اغراء ، فقــد زحف الى مصر من فوره ، وبعد حصار دام ثلاثة اشهر اضطر شيركوه الى الانسحاب من مصر خــوفا من الموت جوعا .

وبعد عامين تكررت عمليـــات الكر والفر والهجوم والانسحاب ، فقد سعى شيركوه الى دخـول مصر مرة ثانية بأمر نور الدين ، فصده تحالف شاور مع (املريك) ، ورابط بجيشه قرب هرم الجيزة الاكبر فى مواجهة قوات شاور واملريك المشتركة ، ثم تمكن شيركوه من استدراج الفاطميين والصليبيين الى معركة أعد لها وهزمهم فيها . ولكنه أخطأ حين عدل عن احتلال القاهرة واختار الطريق الاسهل وهو احتلال الاسكندرية التى رحب به أهلهـا كراهية لشاور وحلفائه الصليبيين . فقد عمد (املريك) الى محاصرة المدينة بمساعدة الاسطول الصليبى . وفكر شيركوه ونجح فى التسلل من الاســكندرية مع الجزء الاكبر من جيشه فى محاولة لاســتدراج المحــاصرين ومهاجمتهم من الخلف ، وأبقى فى المدينة حامية صغيرة من ألف رجل مع أمر منه بالصمود أطول مدة ممكنة ، ولكن قبل أن أمكن اتمام المناورة أصبح مركز الحامية فى وضع بالغ السوء ، وفى أغسطس عام ١١٦٧ اضطر شيركوه الى عقد هدنة مع الصليبيين .

كان قائد حامية الالف رجل الشاميين المحاصرين ابن نجم الدين أيوب ، صـــلاح الدين يوسف بن أيوب ، المشهور باسم صـــلاح الدين ، البالغ من العمر وقتذاك تسعة وعشرين عاما . لقد كان هذا الشاب المنطوى ذو الابتسامة الجذابة التى كانت تلطف الى حد ما من مسحة الـكآبة فى قسماته ، أكثر اهتماما بعلوم الدين منه بأى شأن آخر . وعنـــدما أصر عمه شيركوه على أن يرافق حملة شاور الى مصر ، لم يكن بأى حال متلهفا للمشاركة فى هذا الزحف الشاق المشكوك فى جدواه . ولم يكن معنى ذلك أنه كان يفتقر الى البسالة ، وانمـــا كان يكشف ببساطة ، وهو الذى قدر له أن يحظى بحيـــاة عسكرية

مظفرة ، انه كان أشد الفــــالحين فى التاريخ نفورا من الحرب .

ولقد ابدى صلاح الدين كمـا بينت المناقشات التى تلت سقوط الاسكندرية موهبة فذة فى الدبلوماسية وايثارا شديدا للتفاوض كوسيلة لتسوية المنازعات . ذلك انه برغم ضعف موقف شيركوه العسكرى فى هذه النقطة ، فقد تمكن بمساعدة صلاح الدين من الحصول على أفضل ما يمكن فى هذه المفاوضات . فانه وان كان قد اضطر الى الموافقة على الانسحاب بقواته ودفع جزية الى ملك الفرنجة المتربع فى بيت المقدس ، فقد حصل فى مقابل ذلك على جلاء معظم الجيش الصليبى عن مصر . لقـد كانت هذه المحادثات فاتحة اتصالات صلاح الدين بالقادة الصليبيين ، ولقد بلغ من شدة اعجاب (أملريك) واركان حربه بما طالعهم فيه من رقى التعـــليم والتحضر انهم انعموا عليه برتبة فارس شرفية .

ولكن على الرغم من كل هذه المداهنة فان صلاح الدين وشيركوه كانا يعلمان جيدا ان انسحاب (أملريك) من مصر انما هو خدعة لتخدير خصومهم المسلمين ريثما يعد لهجوم جديد . وفعلا لم تمض أشهر قلائل بعــد توقيع الهدنة حتى عقد (أملريك) اتفاقا مع الامبراطور البيزنطى يقضى بتقسيم مصر فيما بينهما ، ثم زحف بنفسه الى القاهرة .

ولقد ابدت جيوش الفاطميين مقــــاومة باسلة عند بلبيس ، ولكنهم هزموا بسبب التفوق العددى للمهاجمين الذين أعملوا سيوفهم ذبحا فى رقاب اهل المدينة مسلمين واقباطا ، وتقدم (أملريك) فى زحفه لكى يتقبل استسلام القاهرة .

وهنا لم يطق نور الدين صبرا ، فمرة أخرى ارسل شيركوه وصلاح الدين الى مصر مع جيش قوامه ثمانية آلاف من الفرسان وأوامر قاطعة بوضع حد للحكم الفاطمي والاحتلال الصليبي . وبعد مناورات ودسائس شتى من جانب (أملريك) وشاور تمكن شيركوه في عام ١١٦٨ من دخول القاهرة دون مقـــاومة ، بين مجالي التكريم من جانب الخليفة الفاطمي .

ومن عجب ان املريك تقبل هذه النكسة وانسحب من مصر الى غير عودة قط . وفي خلال ذلك عمل شيركوه على تثبيت نفسه كحـــاكم مصر الفعلي ، وانتهى الامر بالخليفة الى تعيينه وزيرا ، بالاضافة الى لقب القـــائد العام .

ولكن لم يطل العمر بقائد نور الدين اللامع لـكي ينعم بثمار حملاته الدائبة . فقد توفي بعد شهرين ، وخلفه صلاح الدين في منصب الوزارة . وهكذا انتقل حكم مصر الى يدي الشاب المهتم بعلوم الدين ، الذي قال عنـدما صدر اليه الأمر بمرافقة حملة شيركوه الأخيرة : « لابد لي من الطاعة ، لكن لو قدمت الى المملكة ذاتها لما رجعت طائعا اليها بعد البلايا التي قاسيتها في حصار الاسكندرية » .

الفصل السادس عشر :

إنتصار صلاح الدين

منذ الآن فصاعدا انتقل مركز القوة فى العالم الاسلامى الى مصر ، حيث بقى فيهـــا الى ان هـــزم الاتراك العثمانيون الســلاطين المماليك ونقلوه الى القسطنطينية بعد ذلك بثلاثمائة وخمسين سنة . وكانت بغداد خارج الحساب ، وعلى الرغم من ان نور الدين قد رد حـدود الصليبيين فى الشام الى الوراء ، فانه كان معزولا بوجود الدولة اللاتينية المعــادية فى فلسطين الى جانب منه ، والدولة العباسية المحايدة فى العراق فى الجانب الآخر . مصر فقط كانت لديها الموارد وحرية المنــاورة اللازمة لزعزعة قبضة الفرنجة على فلسطين ــ ومن اجل هذه الغاية كرس صلاح الدين نفسه الآن . فقد اقلع عن كافة المسرات وندر ان ينتزع بيت المقدس من الفرنجة ويؤسس لنفسه اسرة حاكمة سنية فى مصر .

بيد انه اضطر خلال العــامين الاولين الى ان يسير بحذر . فمن ناحية كان مدينا بقوته الى نور الدين ، الذى كان جنوده الشاميون يشكلون صلب جيشه ، ومن ناحية اخرى كان بوصفه وزيرا لمصر مدينا بولاء اسمى للخليفة الفاطمى ، الذى كان نور الدين يروم القضاء عليه وعلى الهرطقة الشيعية التى يمثلها .

ثم توفى العاضد الخليفة الفاطمى الرابع عشر والأخير ، وعلى الاثر نودى بصلاح الدين سلطانا على مصر ، وهكذا تحقق واحد من أحب مطامحه . وبوفاة العاضد فقد الشيعة آخر أمل فى توطيد مكانتهم كأصحاب المذهب الحاكم فى الاسلام . ولم يبق للشيعة من نفوذ الا فى جنوب العراق مسرح استشهاد الحسين ، وفى فارس التى اتخذ منها العلويون قاعدة لهم منذ أيام على الرضا وعبد الله ابن ميمون مؤسس الطائفة الاسماعيلية ، وفى اليمن التى أصبحت الملجأ الأخير للقرامطة . وفى كل مكان آخر من العالم العربى بقى المذهب السنى هو السائد .

وكان نور الدين يتوقع الآن بعد ان ظفر صلاح الدين بسلطنة مصر أن ينضم اليه لسحق الفرنجة . لكن صلاح الدين لم يكن يريد أن يستعجله أحد . فعلى الرغم من أنه كان مستعداً لازعاج مواقع الحدود الصليبية فى غزة ، الا أنه لم يكن مستعداً للقيام بحملة كبرى . ولكن نور الدين لم يلبث أن نفد صبره وهدد بغزو مصر ذاتها وتاديب نائبه العاق . وفيما كان يعد لهذه الحملة فاجأته المنية فى شهر مايو عام ١١٧٤ وهو فى دمشق ، متأثرا بالتهاب صديدى فى اللوزتين .

كانت هذه فى الحق ضربة حظ مزدوجة لصلاح الدين فقد خففت من الضغط عليه لمهاجمة الصليبيين قبل أن يتم استعداده ، وفتحت أمامه الباب للعمل على ضم الشام الى سلطنته بخلافة الصالح اسماعيل لأبيه نور الدين وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره . ولكن بينما كان صلاح الدين يتدبر هذه الخطوة سبقه (املريك) وعقد معاهدة ضده مع الوصى على الصالح اسماعيل . وبعد شهرين من توقيع المعاهدة وقبل قيام الفرنجة بتعبئة

قواهم للهجـــــوم على مصر ، توفى (املريك) ثالثه بالدوسنطاريا . وهكذا تغيرت الصورة كلها فيما لا يجاوز ثمانية اسابيع ، فقد غدا منافساه الرئيسيان ـ المسلم والمسيحى ـ فى عداد الأموات ، وتركا صلاح الدين القوة والشخصية المسيطرة فى الشرق الأوسط . واضـحت الشام ، وهى بلا قيادة ثمرة ناضجة سهلة الاجتناء ، وغدت دولة فلسطين المسيحية مفككة بفعل الصراعات بين سلسلة من الملوك المرضى أو الضعاف .

والواقع ان هذا التغيير الدرامى المفـاجىء قد عكس نفسه فى مسلك صـلاح الدين ، اذ تخلى عن حـذره السابق ، واقبل على هذه الفرصة يمسكها بكلتا يديه . فقد خف الى دمشق اسـتجابة لدعوة من امراء الشام لتخليصهم من الوصى الغادر ، حيث انضمت اليه الحامية الشامية كرجل واحد . وعندما هرب الحاكم الصبى الى حلب مضى السلطان صـلاح الدين واستولى على حماة وحمص وبعلبك . وفى النهاية وافق صلاح الدين على عرض من الصـــالح بأن يترك له حلب ، وقنع بباقى ممتلكات نور الدين فى الشام .

وخلال السنوات الثلاث التى انقضت منذ ان استولى صلاح الدين على دمشق ، كان رد الفعـل من جانب الصليبيين سلبيا بصورة غريبة . وقد استطاع صلاح الدين ان يعرف عن طريق بعض عيونه ان الصليبيين قد انقسموا على أنفسهم انقساما عميقا . فان المرارة التى تولدت بين الفرنجة والروم بسبب انطاكية قد تطورت الى عـداء سافر ، واخذ الفرنجة فى العهد الأخير يتنازعون فيمـا بينهم . يضاف الى هذا أنهم كانوا فى حاجة الى تعزيزات لهم بعد أن سئم الكثيرون منهم وعادوا الى ديارهم .

هكذا بدأ صلاح الدين بمحاولة من مصر للاستيلاء على بيت المقدس . ولكنه عند اجتياز الحدود قرب عسقلان فرق جيشه للبحث عن علف ، دون أن يبقى منه سوى حفنة من الجنود والمماليك ، فكادت هذه الغلطة تكلفه حياته ، اذ تعرض لهجوم مباغت من حامية عسقلان ، ولم ينقذه سوى شجاعة ابنه الاصغر الذي لقى حتفه وهو يصد الفرنجة الى أن تمكن والده من الافلات .

كادت هذه النكسة تنال من ثقة صلاح الدين ، حتى عاد فترة الى التزام حذره السالف . ولكنه بعد سنة عاد الى الهجوم من الشام فظفر بنصرين حاسمين فى ربيع عام ١١٧٩ . وبعد سنة أخرى طلب الفرنجة هدنة ، وكان بوسع السلطان صلاح الدين ان يجهز عليهم فى هـذه المرحلة ، ولكن الجفاف المستمر الذى حل بأجزاء كثيرة من الشام وفلسطين وادى الى مجاعة ، أثار خوفه من أن يؤدى استمرار القتـــــال الى استنزاف مؤن السكان المحليين ، وهكذا وافق على وقف اطلاق النار .

ولكن حدث فى عام ١١٨١ أن رينو دى شاتيون أحـد الأمراء الصليبيين نقض الهدنة بالاغارة على احـدى قوافل المسلمين . وقد مال صلاح الدين اول الأمر الى تسوية الموقف ســلميا على أساس اعادة الاسلاب التى نهبها الصليبيون والامتناع عن مهاجمة قوافل المسلمين ، ولكن بعد انقضاء اثنى عشر شــهرا فى المراوغة من جانب الصليبيين ، وبعد أن اقتنع صلاح الدين بأن رينو دى شاتيون يرنو بأنظاره الى مكة والمدينة ، قرر الا ينتظر أكثر من هذا القدر ، وفى مايو عام ١١٨٢ زحف من مصر لآخر مرة لمحاربة الفرنجة .

وقبل أن يبدأ الهجوم الفعلى عمل على تأمين ظهره

من اى تهديد غادر من جانب السلجوقيين ، فاستولى على الموصل وارض الجزيرة بين نهرى الدجلة والفرات . ثم استولى على حلب بعد أن توفى (الصالح) قبل ذلك بفترة قصيرة . ورغبـــة فى توفير الامن لمرور الحجاج المسلمين والقوافل التى كان رينو الغادر يداوم الانقضاض عليهـا ، فقـد هاجم قاعدة رينو فى الكرك فى نوفمبر عام ١١٨٣ ، ولكن القاعدة كانت قوية التحصين حتى دام حصارها عاما . وبعد ان عرض الفرنجة هدنة اخرى قبل صلاح الدين بسبب مرض ألم به ودام شهورا عدة . وعند شفائه علم ان رينو نقض الهدنة وعاود الهجوم على قوافل المسلمين . وهنا أيقن صلاح الدين ان المهادنة لن تجدى نفعاً بعد أن استغل الصليبيون صبره الى ابعد حد . وهكذا دقت ساعة الثأر ، واقسم صلاح الدين أن يقتل رينو بيديه ، وأعلن الجهاد ضد الصليبيين .

وبحلول شهر يوليو عام ١١٨٧ جمعت دعوة الجهـاد اكبر جيش قاده صلاح الدين فى اى وقت مضى . وعلى رأس هذا الحشد الجرار عبر السلطان نهر الاردن الى شمال فلسطين واســتولى على طبرية . وبهذا أصبح بيت المقدس معزولا عن أى تعزيز يجىء من طرابلس وانطـــاكية ، وأصبح الصليبيون مضطرين الى اختيار الموقف الصعب : فاما الخروج للقتال بشروط صلاح الدين، واما البقاء فى بيت المقدس وانتظار الحصــــار . وبعد مشـــــاورات بين (جى) ملك بيت المقدس ورينو دى شاتيون ، تقرر ضد رغبة الأول الخروج لمحاولة استعادة طبرية . ولم يكن ثمة أفضل من هذا القرار للوقوع بين يدى صلاح الدين ، اذ بدلا من اضطراره لمواجهة حشود القوات الصليبية فى داخل مدينتهم المحصنة ، كان بوسع السلطان الآن أن يختار أرض المعركة الملائمة له .

كان هذا الموقع قرب قرية بين التلال المحيطة ببحيرة طبرية تدعى حطين . وبمجـــاورتها للمراعي الخضراء والمياه الوفيرة هيأت حطين لقوات المسلمين ميزة معنوية وعسكرية قوية على الفرنجة . ذلك ان حرارة يوليو كانت خانقة ، وبعد ان اضطر الفرنجة الى سير شاق لبلوغ بحيرة طبرية فقد أصبحوا يكابدون عذاب العطش . وكان عليهم للوصول الى مياه البحـــيرة التى لاحت لأنظارهم أن يمروا بجيش صلاح الدين المحتشد . وهنا انقسمت آراء الصليبيين وهم يتخذون مواقعهم فى الثالث من شهر يوليو فوق الهضبة الجافة ، بين القرية وتل مسنين يعرف باسم قرون حطين . فبعضهم رأى أختراق خطوط المسلمين للوصول الى البحيرة، وبعضهم ممن كانوا اكثر اعياء منهم عطشا رأى الركون الى الراحة ليلا .. فأمر الملك (جى) بالتوقف . وانتهز المسلمون الفرصة فأشعلوا النار فى الشجيرات الجافة المحيطة بالهضبة ، مما جعل الدخان يتدفق الى خيام الصليبيين فيخنق ويعمى من فيهـا ، وفى هـدوء أحاط جيش السلطان بمعسكر العدو .

وعند طلوع النهار بدأ هجوم المسـلمين . وفى لظى العطش لم يفكر مشـــاة الصليبيين الا فى الوصول الى البحيرة ، ولكن رجال صلاح الدين ردوهم على أعقابهم فيما بين اللهب ودخان الشجيرات المحترقة . وقد راح فرسان الفرنجة يقاتلون ببسالة رائعة ، بيد انهم كانوا مثل زملائهم المشاة يقاسون وطأة الحرارة والعطش ، وبدأت قواهم تخور والمســـلمون يدفعونهم دفعا الى منطقة القرون . وبينما تحطم هجـــومهم الاخير على الجدار المحيط بهم من رماة السهام وحملة السيوف المسلمين ، أصدر صلاح الدين امرا الى قواته بالاطباق

على الصليبيين المضعضعين الذين انهـــــارت روحهم المعنوية . وبهذا الهجوم ما لبث الصليبيون أن تحطموا ولاذوا بالفرار . وبعد أن رأى صلاح الدين آخر خيامهم وهي خيمة الملك القرمزية تهوى ، لم يتمالك ان وثب من فوق جواده وبكى من فرط الفرح والارتياح .

وعندما انصرم اليوم الدموى لم يبق من الفرنجة على قيد الحياة سوى حفنة ، وتكدست ســـاحة المعركة بعشرات الالوف من الموتى والخيل الصريعة . (ويروى ابن الاثير انه بعد عام من ذلك عندما حصدت الوحوش والجوارح محصولها الشنيع ، كانت ساحة القتال في حطين أكداسا مكدسة من العظام) . وقد استسلم الملك جي ورينو دي شاتيون وجيء بهما الى خيمة القـــائد المنتصر وتلقى صلاح الدين الملك برقة وتلطف ، ولما رأى شدة عطشه قدم له ماء مبردا ، ولكنه انقلب على رينو ودمغه في صوت قاصف بخياناته وأعمال السلب والنهب التي كان يرتـكبها ، ثم اهوى على عنقه بضربة سيف فصلت رأسه عن جسده . وقد قيل للملك جي المرتعد ان حياته سيبقى عليها ، ولكن التعليمات أعطيت باعدام مائتين من الفرســـان الذين ساعدوا رينو في أعمـاله الغادرة . أما باقي الأسرى فقـــد عفى عنهم ، وسمح للـكثيرين منهم بالعودة الى بلادهم .

لقـد قضى صـلاح الدين الآن على الجيش الوحيد القادر على دحره ، وعندما أخـذ في اتمام عمليـــات التطهير في باقي فلسطين سلمت عكا دون قتال ، ولم تقاوم نابلس سوى بضعة أيام ، وسقطت يافا في يد أخيه العادل الذى تحرك من مصر . كمـــا سقطت صيدا ، وتبعتها بيروت وجبيل . ولم تتعرض طرابلس للهجوم

بسبب معاهدة سرية بين المسلمين وحاكمها الصليبي أدت الى وقوفها موقف الحياد . وقاومت صور طويلا حتى تجاوزها صلاح الدين فى زحفه صوب الشمال . وفى النهاية استسلمت عسقلان فى الجنـــوب للمصريين ، وتبعتها غزة وبيت لحم . كان صلاح الدين الآن يملك او يسيطر على الساحل الصليبي كله من الشام الى مصر ، ولم يبق امامه بعد أن أصبح بيت المقـــدس معزولا عن كل نجدة من الخارج سوى أن يتحرك نحو المدينة المقدسة .

وعنـدما وصلت قـوات المسـلمين امام ابواب بيت المقدس فوجئوا بوجود عدد من الرجال فوق أسوار المدينة اكثر بكثير مما كانوا يتوقعون بعد القضاء على جيش الصليبيين عنــد حطين . وانبعثت من داخـل استحكامات جلبـــة مدوية أكدت ان المدينة قـــوية التحصين . وقد طوق صلاح الدين المدينة خمسة ايام قبل أن يقدر مهاجمتها من الجـــانب الشمالي . ثم استخدم المجانيق لدك الأسوار ونقب التحصينات من أسفل . واعقب ذلك معركة دموية تمكن المسلمون بعدها من فتح ثغرة فى الاســوار . وبينما كان المحـــاصرون يتدفقون الى الداخل عرض الفرنجة التسليم بشروط ، فتردد صلاح الدين أول الأمر اذ كان قد نذر ان ياخذ المدينة بحد السيف وذكر الفرنجة بالفظائع التى ارتكبوها عام ١٠٩٩ . ولكن باليان حاكم بيت المقدس هدد بحرق المدينة وبالا يبقى فيها احد على قيد الحياة مسيحيا كان او مسلما ، حرا أو اسيرا ــ اذا أصر صلاح الدين على اقتحام بيت المقـــدس . فقبل صلاح الـدين شروط الفرنجة نظير فدية جرى الاتفاق عليها يدفعها الصليبيون فى مدى اربعين يوما .

هكذا عاد بيت المقدس الى حظيرة الاسلام بعد ثمانية وثمانين عاما من الاحتلال المسيحى . وقد أنزل الصليب الذهبى الذى نصبه الفرنجة فــوق قبة الصخرة التى اقامها عبد الملك وسط صيحة الفرح المدوية من جانب النظارة المسلمين ، وأعيدت الآثار الاسلامية التى دنست حرمتها الى المســــجد الأقصى . ولكن فيما عدا اعادة الأماكن الاسلامية المقدسة ، لم يسمح صلاح الدين بأى مساس بالمبانى . وطبقا لشهادة المؤرخين المسيحيين ، فقد صدرت أوامر صارمة الى كافة الجنود المســلمين بحمـــــاية ارواح المسيحيين وممتلكاتهم ، ولم يتعرض مسيحى واحد للمضايقة بسبب ديانته ــ وهــذا فارق جدير بالتنويه بالقياس الى الفظائع التى ارتكبها الفرنجة قبل ثمانية وثمانين عاما .

وما كان الفرنجة ليستحقوا ما عاملهم به صلاح الدين من شهامة . وكما يقول السير ستيفن رنسيمان فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » ، فانه بسبب مسلك البخل الذى سلكته ســلطات الــكنيسة ، لم يتم جمع أموال الفدية ، مما ترتب عليه تهديد الوف المسيحيين بالبيع فى سوق الرقيق . ولكن عندما دفع بأول مجموعة وكانت مؤلفة من الف فرد ، توسط لهم العـــــــادل اخو السلطان ، وعندئذ أمر صلاح الدين باخلاء سبيل جميع المسنين الذين لم تدفع عنهم الفدية ، وبخفض مجموع الفدية الى جزء من المبلغ الأصلى . وعنــدما تخلف الفرنجة رغم ذلك عن الدفع ، أطلق صلاح الدين جميع المتزوجين والأرامل والايتام ، وساعد المحتاجين منهم فعلا من بيت المال . وكما يقول رنسيمان : « لقد انتقم صلاح الدين عند قرون حطين وأبواب بيت المقدس للاذلال

الذى كان فى الحرب الصليبية الأولى ، وأظهر كيف يحتفل الانسان الكريم بانتصاره » .

أحدث الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين رد فعل جنونيا فى أوروبا . فقد أبحر على الفور فردريك بربروسا ملك ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب ملك فرنسا لشن الحرب الصليبية الثالثة . لكن هذه الجيوش الوطنية الثلاثة ، بسبب افتقارها الى أى نظام مركزى للقيادة ، اتجه كل منها وجهته الخاصة . فقد انحرف رتشارد لغزو قبرص . واستهدف فردريك بربروسا الذى سلك طريقه خلال البلقان الى الازعاج من جانب السكان المحليين ، وعند وصوله الى آسيا الصغرى وجد الاتراك السلاجقة اصلب عودا مما كان يتوقع . واكمالا للمصائب التى نزلت بالالمان غرق فردريك نفسه وهو يعبر نهرا فى طريقه . وبسبب هذه العوامل جميعا فان الهجوم الصليبى المضاد تعرض للتأخير ، ولم يحدث الا فى منتصف عام ١١٨٩ أن أصبح الالمان ، فى موقف يسمح لهم بتهديد أراضى المسلمين .

ومرة اخرى فان صلاح الدين الذى يفضل الكلمات على الحرب عرض التفاوض ، وتدليلا على حسن نيته أطلق سراح الأسرى الصليبيين بما فيهم الملك (جى) ، بعد أن أقسموا أنهم لن يحملوا السلاح ضده . ولكن رد الصليبيين الوحيد كان الاصرار على اعادة فلسطين كلها اليهم ، بما فيها بيت المقدس ، وسحب السلطان الكامل جيشه الى مصر . وقد اعقب هذا تحرك ضد عكا . فان (جى) الذى نكث بقسمه حالما استرد حريته ، جمع جيشا فرض الحصار على الميناء . فدفع صلاح الدين بقواته الى المسرح ، وكان على وشك أن يرفع الحصار عندما وصلت تعزيزات صليبية أخرى عن طريق صور ،

الميناء الوحيد على البحر الابيض المتوسط الذى كان يعمل المسلمون على الاستيلاء عليه .

ان هذه الفلطة الاستراتيجية قدر ان تكلف السلطان غاليا فى الشهور التالية . فان الصليبيين باستحواذهم على هذه الثغرة الحيوية فى دفاعات المسلمين ، اخذت قواتهم ومؤنهم تتدفق الآن من خلال صور . وباستخدام الميناء كقاعدة بحرية ، فرضوا حصارا بحريا حول عكا . واحتشد الآن جيش مسيحى جرار خارج اسوار المدينة المحاصرة . وعلى الرغم من انه بين حين وآخر كانت تنجح سفينة من مصر فى اختراق الحصار وجلب الطعام الى الحامية المسلمة ، فان المجاعة بدأت تحدث تأثيرها تدريجيا فى الارواح والقوة . ومع ذلك فان عكا ظلت صامدة مدى ثلاثة وعشرين شهرا قاسية ، الى ان استسلمت الحامية منهكة من الجوع والاعياء فى شهر يوليو عام ١١٩١ الى المحاصرين ، وكانوا الآن بقيادة رتشارد ملك انجلترا . وكانت الشروط فى الواقع مطابقة للشروط التى قبلها صلاح الدين لاستسلام بيت المقدس — وهى دفع الفدية فى مقابل الابقاء على ارواح وحريات المدافعين عن عكا . لكن قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ الصفقة ، ما لبث رتشارد أن انكرها بدعوى أن اسرى مسيحيين معينين لم يطلق صلاح الدين سراحهم ، ثم شرع فى ذبح حامية عكا كلها بما فيهم زوجاتهم واطفالهم . وبرسوخ قدم الصليبيين فى عكا وصور فقد انتشروا على طول الساحل جنوب قيسارية ارسوف . وقد تقدم رتشارد للاستيلاء على يافا وعسقلان ، ولكنه خاف ان يضرب فى الداخل فى اتجاه بيت المقدس وبعيدا عن قواعده الساحلية . وهكذا بدأت فترة طويلة من المفاوضات سعى فيها الملك الانجليزى الى ان ينال بالدبلوماسية

ما خشي أن يناله بالقوة . ولكن المفاوضات كانت تتعثر بسبب مطلبين لا سبيل الى التوفيق بينهما : فقـــد أصر رتشارد على ان يتنازل صلاح الدين عن فلسطين كلها ، وأصر صـلاح الدين على انسحاب رتشارد من عسقلان ، التي كانت في أيدي الصليبيين بمثابة خنجر موجه الى قلب مصر . ثم تحطمت المفـــاوضات في النهاية ، واستؤنف القتال في مايو عام ١١٩٢ . وقـد زحف رتشارد الآن شطر بيت المقدس ، لكنه لم يكن متحمسا في دخيلة نفسه ، ولم يلبث لدى مجابهته لاصرار المسلمين على المقاومة ان سارع بالانسحاب ، خوفا من اراقة ماء الوجه وخسران الجند وهو يحاول اخذ ما كان يعرف انه لن يستطيع الاحتفاظ به على الدوام . ثم أستؤنفت المفاوضات من جديد ، ولكن دون نجاح .

وفي خلال ذلك كان صلاح الدين يعلم ان رتشارد يتعجل العودة الى انجلترا . وفعلا لم يحل شهر سبتمبر الا وقد شعر رتشارد انه لا يستطيع تأخير رحيله أكثر من هذا القدر . وهكذا عقدت اتفاقية تنازل بمقتضاها صلاح الدين للصليبيين عن الساحل من صور الى يافا ، بما في ذلك حيفا وقيسارية وعكا ، واحتفظ صلاح الدين بباقي فلسطين وظفر بعسقلان التي دمرت فيها المنشآت العسكرية على الفور لئلا يتراجع الصليبيون عن الاتفاقية ويستولوا على الميناء من جديد وهو شـديد القرب من الحدود المصرية . وقد كفلت الاتفاقية الحرية للحجاج المسيحيين والمسلمين لزيارة أماكن العبادة في بيت‌المقدس.

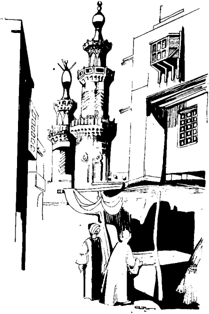
واذا كانت شروط الاتفاقية قد تركت موقف المسلمين أضعف مما كان عليه بعد الاستيلاء على بيت المقدس قبل ذلك بخمس سنوات ، فانهـــا كانت نصرا دبلوماسيا

لصلاح الدين الذى ضمن جلاء الصليبيين عن عسقلان ونحو خمسين ميلا الى الشمال .

فبعد التوقيع على المعاهدة بخمسة اشهر وعودته الى دمشق وافاه الأجل المحتوم فى الرابع من شهر مارس عام ١١٩٣ ، ودفن فى القلعة المجاورة لجامع الوليد بين الحزن والنحيب .

كان صلاح الدين فى حياته مؤثرا للبساطة والاقتصاد فى كل منازعه ، ولم يترك خلفه أكثر من حفنة من النقود وقطعة ذهبية واحدة وبعض الملابس البسيطة . ولم يستحوذ لنفسه على شىء سواء من بيت مال الفاطميين أو من تركة نور الدين . ولم تعرف القسوة طريقها اليه الا عندما كان يواجه الخيانة والغدر . وبخلاف هذا فقد كان ارق الأبطال واشد المحاربين نفورا من الحرب . كان على الدوام ينفر من الالتجاء الى الحرب اذا كانت الحكمة والمفاوضات يمكن أن تحقق غرضه بنفس القدر . واكثر من هذا فانه على النقيض من بعض المخادعين المخاتلين من أمثال رينو دى شاتيون ورتشارد قلب الأسد ، كان اذا وقع معاهدة ظل على الوفاء بها .

ولم تتهيأ لصلاح الدين الفرصة لكسب امبراطورية مثل الوليد أو لتحقيق تفوق ثقافى مثل المأمون ، ولكنه عندما استهدفت الشعوب الاسلامية للاخضاع ودينها للقضاء عليه ، فانه جمع العالم العربى ووحده من النيل الى دجلة ضد عدو اشد خطرا وقوة من كل خصوم الاسلام السابقين ، ووجه للغزاة الاوربيين ضربة لم يفيقوا منها أبدا . لقد أعاد العرب الى الخريطة ، وجعل منهم قوة يحسب حسابها الشرق والغرب على السواء ، وضرب مثلا للروح الانسانية والشهامة فى الحرب .



الفصل السابع عشر :

المغول والمماليك

ما ان توفى صلاح الدين حتى بدأ التفكك فى الاسرة الايوبية التى أسسها والتى استمدت اسمها من ابيه نجم الدين أيوب . فقد نشب الشجار بين ابنائه الثلاثة وبين اخيه العادل بشأن تقسيم ممتلكات السلطان . ورغم الاتفاق على اقتسامها فيما بينهم ، فلم تمض ست سنوات حتى سيطر العادل على مصر والشام وفلسطين دون أبناء اخيه جميعا . وخلال فترة حكمه التى امتدت الى عشرين عاما ، حافظ العادل على اطيب العلاقات مع الصليبيين ، الذين راعوا من جانبهم حدود الاتفاقية التى عقدت بين رتشارد وصلاح الدين . ولكن بعد وفاته فى عام ١٢١٨ ما لبثت الخصومات ان نشبت فى دائرة الأسرة الايوبية .

لقد صمم السلطان الجديد الكامل وهو اكبر ابناء العادل على الحيلولة بأى ثمن دون استئثار ابناء عمومته من فرع صلاح الدين بحكم السلطنة ، وفى هذا السبيل لم يتورع عن عقد صفقة خاصة به مع الصليبيين . ففى عام ١٢٢٩ وبعد حملة صليبية أخرى شنها فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وادت الى اكتساح المسلمين من بيروت وطبرية وعسقلان وتوغلت

فى دلتا النيل ـ تنازل الكامل عن بيت المقدس للصليبيين مع ممر يصل بينها وبين عكا ، فى مقابل معاونة الصليبيين له ضد اى طامع ايوبى قد يحاول الاستيلاء على السلطنة . كانت اتفاقية بشعة وخيانة مروعة لكل ما قاتل صلاح الدين من أجل استعادته للاسلام . واذا كان الصليبيون قد اخفقوا فى استغلال هذه الفرصة للتوغل الى اعماق ابعد فى أراضى المسلمين ، بل قد اضطروا الى التخلى عن بيت المقدس عام ١٢٤٤ للمرة الثانية والأخيرة ـ فان الفضل فى هذا لم يكن راجعا الى الكامل ، وانما كان مرجعه الى المنافسات القديمة بين أبناء جنوا والبندقية والفرنجة مما أضعف قوات فردريك ، ثم الى نقص التعزيزات من اوربا التى أصبحت الآن وهى اقل تأثرا بفكرة مواصلة حرب دينية ضد الاسلام .

فى هذه الاثناء كان عهد السلاجقة الاتراك فى العراق قد انتهى فى عام ١١٩٤ عندما تحالف عليهم الخليفة العباسى الناصر مع والى خوارزم الشيعى مما ادى الى خلع السلطان السلجوقى الحاكم ، ولكن الحليف الجديد انقلب على الخليفة واعلن نفسه سلطانا على العراق وكردستان ، وغزا ابنه فارس وبخارى وسمرقند ، بل هدد بخلع الخليفة العباسى ذاته .

وفى غمرة اليأس التى تملكت الخليفة الناصر اندفع الى التحالف مع عدو للاسلام لا يقل خطرا عن الصليبيين بل يفوقهم وحشية . كان هذا هو جنكيزخان ، زعيم جحافل المغول الوثنيين السيىء السمعة ، الذين راحوا الآن يتدفقون فوق أفراسهم القوية على الامبراطورية العربية السابقة ، مخلفين وراءهم من الموت والدمار

ما لم يشهد له مثيل من قبل . وبحلول عام ١٢١٩ كان جنكيزخان قد استولى على بخارى وسمرقند وبلخ وأحالها الى خرائب واطلال . لقد سويت القصور والمكتبات والمدارس والمساجد بالارض ، بعد استخدامها كاسطبلات لأفراس المغول . وقد ذبح المسلمون بعشرات الالوف ، ومحى من الوجود التراث الاسلامي فيما وراء النهر .

لقد عاش الناصر وخلفاؤه سنوات قلائل فى فراغ ، انتظارا لان يجرفهم النهر الدموى الذى اطلقه حلفاء الخليفة المغول . وقد اعطاهم موت جنكيز فى عام ١٢٤١ مهلة راحة لكنها لم تكن امهالا من العقاب ، ففى اقل من عشر سنوات هبط حفيده هولاكو على فارس ، وبحلول عام ١٢٥٤ زحف شطر العراق ووجه الى المستعصم خليفة بغداد انذارا نهائيا لتسليم المدينة وتدمير دفاعاتها ثمنا لحياته .

كان ناقوس الموت يدق نذيرا للعباسيين . لقد تردد المستعصم وحاول التفاوض ، فجاءه الرسول بوعد بابقائه على العرش اذا سلم نفسه شخصيا مع كل أفراد حاشيته . فانخدع المستعصم وسارع الى خيام هولاكو مع أسرته وكافة موظفيه وحرسه وكانوا يبلغون المئات . وعندما تكامل جمعهم انقض عليهم المغول وذبحوهم جميعا ذكورا واناثا على السواء . ثم أسلمت بغداد بعد ذلك الى مذبحة رهيبة وعمليات نهب ودمار أشد بشاعة مما حدث فى بخارى . لم تدع الجحافل الوثنية بناء قائما بعد أن اشعلوا النار فى كل شىء بما فى ذلك المكتبات والمدارس . لقد ذبح المغول المتعطشون للدماء أكثر من مليون من الناس بما فيهم النساء والأطفال الرضع .

وبلغ من شناعة الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث المتحللة ان اضطر هولاكو الى سحب جيشه مؤقتا من المدينة . وكانت عمليات النهب والسلب على نطاق لم يسبق له مثيل فى تواريخ الحروب . ولقد احرقت قبور الخلفاء ، واحيل قصر المستعصم والمساجد الكبرى الى انقاض . ولم ينج سوى المسيحيون وكنائسهم ، اذ كانت زوجة هولاكو مسيحية ، وكان هولاكو قد عقد صفقة مع ملك ارمينية البيزنطى بالابقاء على حياة المسيحيين وأماكن عبادتهم والمساعدة فى استرجاع بيت المقدس ، بشرط ان يساعده المسيحيون فى القضاء على الاسلام .

ولاول مرة فى مدى الستمائة عام التى انقضت منذ وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) كان الاسلام بغير خليفة . لكن اذا كان المغول قد ظنوا انهم يستطيعون بمساعدة المسيحيين تحطيم بقية العالم العربى بمثل السهولة التى دمروا بها بغداد فانهم لم يحسبوا حسابا لروح المقاومة التى اذكاها صلاح الدين فى مصر والشام . فعلى الرغم من ان آخر الأسرة الايوبية الحاكمة قد سقط فى النهاية دون ان يكون له فضل سوى استرداد بيت المقدس ، فقد قامت مجموعة جديدة جبارة لكى تخلفه .

ففى عام ١٢٥٢ اطاح بالايوبيين جنودهم وعبيدهم ، الذين تباهوا لدى استئثارهم بالسلطة بلقب عبوديتهم الاصلى ، وهو مماليك مصر . وعلى مدار المائتين والخمسين عاما التالية قدر لهؤلاء العبيد السابقين الذين تحولوا الى اجناد أن يحكموا مصر فعلا واسما .

لقد انتقلت الكرة الآن الى اقدام المماليك عندما عين احدهم وهو سيف الدين قطز وصيا على ابن السلطان الصغير السن . وفى الوقت الذى تم فيه هذا التعيين

كان قطز مشتبكا مع الصليبيين فى جنوب فلسطين ، يساعده شاب من التركمان طويل القامة داكن البشرة أزرق العينين يدعى بيبرس البندقدارى . كان بيبرس من ابناء كيشاك فى وادى نهر الفولجا وقد اشتراه عبدا فى دمشق الصالح الايوبى وعينه للخـــدمة فى حرس السلطان ، وسرعان ما لمع فى خدمة الصالح ، وتهيأ له بفضل ما امتاز به من قامة مهيبة وصوت آمر ونشاط متوقد ان يثبت منذ البداية انه ولد ليقود الرجال . وقد أدت سرعة ارتقائه فى الجيش الى تعيينه وهو فى الخامسة والثلاثين قائدا للقوة التى قـامت بالحملة فى فلسطين بعد اعادة الاستيلاء على بيت المقدس ، وكلل هامته بالمجد باخراج الصليبيين من الشام .

لقد زادت مطامع بيبرس السياسية مع انجـــازاته العسكرية ، وعندما وضع المماليك نهاية لحكم الأيوبيين فى عام ١٢٥٢ ، فقد لاحت له الامكانيات المتاحة لجندى موفق مثله . وعند هذه النقطة كان يمكن ان يقنع بتعيينه نائبا للسلطان فى الشام لو أن قطز تصرف مع مساعده بأمانة . لكن قطز ذاته كان اكثر طموحا من بيبرس . فبعد عامين من الوصاية خلع السلطان الصبى ونادى بنفسه سلطانا فى عام ١٢٥٩ . وما أن استولى على العرش حتى اكتسح مغول هولاكو الشام بعد انتصاراتهم الوحشية فى العراق واســـتولوا على دمشق وحلب وصيدا . وقد أعدم كل مسلم وقع فى الأسر أثناء القتال ــ هلك خمسون الفــا فى حلب وحـدها ــ ولم ينج الا المسيحيون وفقـا للصفقة التى عقـدها هولاكو مع الارمن .

مرة أخرى واجه الاسلام امكانية الفناء الشامل ،

عندما خرج قطز وبيبرس من الشام اقتداء بصلاح الدين . وقد تولى بيبرس قياده مقدمة الجيش المملوكى الذى اشتبك مع المغول فى معركة فاصلة فى عين جالوت قرب بيت المقدس فى الثالث من شهر سبتمبر عام ١٢٦٠ . لحقت الهزيمة بالمغول بعد ان اتبع بيبرس التكتيك العربى المجرب وهو التظاهر بالفرار ثم الايقاع بهم فى كمين من النيران الفاتكة . لقد ترك المغول قادتهم صرعى فى ساحة القتال وسمحوا لانفسهم بالفرار ومطاردتهم وطردهم من الشام . ولم يكن هولاكو حاضرا فى عين جالوت ، فقد اضطر أن يعود الى دياره اثر وفاة شقيقة ليسوى ليرث الحكم . لكن غيابه عن الميدان لا ينال من حجم وأهمية انتصار بيبرس . فان جيشه قد انقذ الاسلام ومن ثم العالم المتحضر كله من أطباق مد الهمجية المغولية عليه .

كان بيبرس بطل الساعة ، ولكنه عندما طالب بالمكافاة التى وعده قطز بها حين خروجهما مصر ـ وهى الولاية على حلب ـ تراجع السلطان عما وعد به . فأثار هذا الخداع حنق بيبرس واقسم ان يصفى الحساب معه . وعندما كان الاثنان منشغلين بالصيد اثناء رحلة العودة الى مصر ، تسلل بيبرس الى قطز ووجه اليه طعنة قاتلة . وكان بيبرس يعلم جيدا ان دوره فى هزيمة المغول سوف يضمن له الصفح عن جريمته ، وفعلا فانه عندما دخل القاهرة بعد ايام قلائل استقبله الجمهور استقبالا حماسيا بوصفه سلطان مصر والشام الجديد .

ان رجلا اقل عزما ونشاطا من بيبرس كان يمكن ان يقتنع الآن بما حقق من نصر . فقد أصبح مغول هولاكو محصورين فى العراق ، ولم تعد البقية الباقية من الصليبيين فى فلسطين تمثل تهديدا خطيرا لمصر والشام .

ولكن رائحة الصيد بدأت تملأ خياشيمه ، ولهذا صمم بيبرس ان يتفوق على صلاح الدين ويخرج لطرد الفرنجة من فلسطين كلية ويضيف بغـــداد الى امبراطوريته . وفضلا عن هذا فانه كان على النقيض من صلاح الدين لا يتوقف عند حد ولا يتورع عن حيلة أو خديعة يمكن أن تحقق مآربه . ولقد صمم على الخصوص أن يتحاشى الحرب فى جبهتين . ووفقا لهذا فقد تحالف أولا مع المغول لهزيمة الصليبيين ، ثم مع الامبراطور البيزنطى لهزيمة المغول ، وعقد معاهدات تجارية مع ملوك فرنسا وصقلية واسبانيا لامداده بالاسلحة وعتاد الحرب اللازم لـكلا العمليتين .

وبعد أن اتم بيبرس عقد أولى المحالفتين خرج على رأس جيش المماليك لتدمير الفرنجة ، ولكى يصب انتقامه بصفة خاصة على المسيحيين فى ارمينية وانطاكية ، الذين كادت معاهداتهم مع هولاكو أن تؤدى الى القضاء على الاسلام . وقد اســـتولى فى عام ١٢٦٣ على الكرك من الصليبيين ، وبعد عامين على قيسارية وحيفا . وفى عام ١٢٦٦ حاصر صفد قرب طبرية ، وبعد أن وعـد حاميتها بالعفو فى مقابل استسلامها ، جمع المدافعين البالغ عددهم الفين فوق ربوة واعدمهم جميعا . وواصل الزحف عبر الجليل وعلى امتداد الساحل وهو يذبح كل مسيحى وقع فى قبضته عربيا كان أو أوروبيا . ولما أخفق فى الاستيلاء على عكا تجاوزها لغزو قيليقية والاستيلاء عليها . ثم اتجه الى انطاكية وانذر حاكمها بالتسليم او الدمار . واذ لم يستجب بادر باقتحام المدينة واحرقها حتى ســـــواها بالارض وذبح حاميتها وباع الزوجات والأطفال فى سوق الرقيق . وبعد هذا سقطت يافا ومن بعدها الحصن الصليبى الشهير (كراك دى شفالييه)

الذى تحدى كل هجمات صلاح الدين .

وفى عام ١٢٧١ أوقفت التعزيزات التى تلقاها الفرنجة تقدم بيبرس . فعقدت هدنة وترك الصليبيون يتعلقون بضع سنوات بمواطىء أقدامهم الأخيرة فى صيدا وعكا وطرابلس . ولم يلبث بيبرس الآن ان طالب بتنفيذ ميثاق عدم الاعتداء الذى عقده مع البيزنطيين لكى يواجه المغول ويعمل على تمزيقهم . وكان هدفه أن يستولى على بغداد وينصب خليفة عباسيا يقلد بيبرس « سلطانا وواليا على مصر والشام والحجاز واليمن ووادى الفرات » ، كما يقدم ذريعة لاعادة مدينة بغداد رسميا الى خليفة من العباسيين .

وفعلا لم يجد بيبرس صعوبة فى العثور على واحد من أقرباء الخليفة العباسى الذى قتله المغول لكى يجلس على عرش الخلافة الخالى . ومن عجب أن هذه الدمية التى استخدمها بيبرس استمر صاحبها يحكم تحت أوامر المماليك الى أن غزا الأتراك العثمانيون مصر فى عام ١٥١٧ وحملوا معهم آخر خليفة سجينا الى القسطنطينية . وهكذا استخدم بيبرس هذه الدمية العباسية ذريعة لغزو العراق فى عام ١٢٧١ . وعلى الرغم من انه اخفق فى الاستيلاء على بغداد ، الا انه نجح فى مد حدوده شرقا . كان هولاكو قد توفى عام ١٢٦٥ ، تاركا قبضة المغول على العراق اضعف مما كانت من قبل ، وقد استطاع الجيش المملوكى مدى خمس سنوات أن يدمر وينهب وادى الفرات وهو بمنجاة من العقاب وان يطهر المنطقة تماما من حامياتها المغولية . وحاول ابافا خلف هولاكو أن يدفع المماليك فى استماتة ، بل اندفع الى ايفاد سفير الى البابا ليرجوه ، بمؤازرة من ارمينية ، ارسال حملة صليبية أخرى .

ولكن الغرب كان الآن أضعف روحيا وماديا من القيام بمجهـــــود جديد ، ولم تتم الاستجابة لهذه المؤامرات المغولية .

توفى بيبرس فى يوليو عام ١٢٧٧ قبل أن يتمكن من اتمام مهمتيه الأساسيتين . فان طرد البقعـة الباقية من الصليبيين نهائيا من فلسطين حدث بعد ذلك بأربعة عشر عاما على يد مملوك آخر من كيشاك هو سيف الدين قلاوون ، المع خلفاء بيبرس . وبالمثل فان الموجة المغولية لم تتبدد نهائيا الا فى عام ١٣٠٣ عنـــدما حاول حفيد هولاكو وهو خازان خان غزو الشام مرة أخرى ، فهزمه المماليك قرب دمشق واقتيـد الأسرى من جيشه الى القاهرة مقيدين بالسلاسل وهم يحملون حـول رقابهم رءوس رفاقهم الذين سقطوا صرعى المعركة . ولكن ، فكما أن صـــلاح الدين هو الذى وضع أسس النصر النهائى ضد الصليبيين ، فكذلك كان بيبرس هو الذى حطم زحف المغول وهم فى ذروة قوتهم . وبهذا العمل من جانبه أعطى العالم الاسلامى قرنا من السلام والأمن ، الى أن جاء تيمورلنك وكرر قصة الموت والدمار التى بدأها جنكيزخان . وأكثر من هذا فان بيبرس بوقفـه للزحف المغولى فيما وراء حدود مصر ، قد أنقذ مصر من الخراب الذى حل بالشام والعراق ، وهكذا ضمن لها تفوقا ثقافيا وسياسيا فى العالم العربى قدر له أن يظل بلا منازع مدى ستة قرون .

وكان بيبرس أكثر من شخصية عسكرية ، وكانت طاقته الكبيرة مكرسة لتحسين الادارة فى مصر ، والشام بقـــدر ما كانت مكرسة لقتل خصومه من المغـول . فقـــد خفض الضرائب ، وتبنى الأعمال العـــامة ، وحفر القنـوات ، وطـور الموانى ، وأعطى مصر والشام



نظاما للبريد لا يكاد يفضله نظام فى عصرنا الحالى القائم على الاتصال بالطائرات النفاثة ، حتى كان الخطاب بين البلدين لا يستغرق أكثر من اربعة أيام .

ولعل مما يسترعى النظر ان نجاح المماليك بعد وفاة بيبرس يرجع الى أن سلاطينهم كانوا يجيئون ويذهبون على فترات أقصر من تلك الفترات التى كانت تفصل عهود الخلفاء العباسيين اثناء الليل الطويل لتسلط اجنادهم الاتراك عليهم ، ان القرنين ونصف القرن من السلطنة المملوكية تنقسم الى أسرتين منفصلتين وقد شهدت موكبا لا يقل عن سبعة واربعين سلطانا . فقد حكم المماليك البحرية من عام ١٢٥٠ الى عام ١٣٩٠ . وجاء بعدهم المماليك البرجية فواصلوا الحكم الى ان اجتاحهم الاتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . ولكن المماليك ، على خلاف العباسيين ، رفضوا نظام الوراثة . فلم يكن السلطان المملوكي اكثر من الأول بين اقرانه . وكانت السلطة الحقيقية مركزة فى ايدى أقلية حاكمة من العسكريين . وهكذا فان العصبة من الرقيق التى حكمت مصر والشام ظلت واقفة على اقدامها بفعل تنافس صحى فى دائرة الجسم السياسى ، مما حال بينها وبين الوقوع فريسة لمؤثرات الفساد والانحلال المتولدة من حياة الترف والخصومات العائلية التى شملت سقوط الأسرات الحاكمة الوراثية التى سبقتها .

القسم الخامس :

التفـــوق الــــــتركى

الفصل الثامن عشر :

رقاد العصور

عندما أهل القرن الرابع عشر كان الاسلام مرة أخرى سيد مصيره . فقد طرد الصليبيون طردة من كانوا ضحايا للهوى والغدر والجشع ، وهم الذين قال عنهم ستيفن رنسيمان : « كان عندهم الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف ، والكثير من التفاني والقليل من الفهم . مثل عليا لطختها القسوة والشدة . ولم تكن الحرب المقدسة ذاتها أكثر من فصل طويل من التعصب باسم الرب » أما المغول فقد ظلوا مسيطرين على فارس والعراق ، ولكن ابتداء من غازان خان فصاعدا فقد اعتنقوا الاسلام . وفي الشام فان الجيش المملوكي الذي صد غزو غازان خان في عام ١٣٠٣ قمع الدروز والموارنة المسيحيين والاسماعيلية ، وبدا عندئذ ان العالم العربي قد تخلص من تأثير الطوائف المنشقة التي كانت تتحدى عقيدة أهل السنة .

والواقع ان الامبراطورية وان كانت مقسمة سياسيا بين المماليك في الغرب والمغول في الشرق ، فان الاسلام السني كان متحدا على نحو لم يبلغه منذ أيامه الأولى ، وقد وقف الآن متأهبا للقيام بزحف كبير آخر كان مقدرا أن يسحق الامبراطورية البيزنطية الى الأبد ويدفع بجيش من المسلمين حتى أبواب فيينا . ولكن هذا

الانتصار الكبير عندما جاء ، كان تركيا وليس عربيا .
ومن تصاريف القدر أن العرب الذين ترعرعت بينهم العقيدة التى قدر للأتراك العثمانيين أن يفتحوا بها كل جنوب شرق أوروبا ، كان حظهم أن يبتلعهم ويستعبدهم هؤلاء الفاتحون .

لقد ظهر الأتراك العثمانيون لأول مرة قرب نهاية القرن الثالث عشر تحت قيادة أمير شاب ذى صلابة وطموح يدعى عثمان ، أصبح مؤسس أسرة آل عثمان الذى لقبت هذه الأسرة الحاكمة باسمه . ولم يقنع عثمان بالأفدنة القليلة التى كانت له ولاسرته فى وسط الاناضول ، فعمل على توسيع هذه الرقعة فى جميع الاتجاهات ، وكان موصوفا بالقسوة المفرطة حتى قيل انه قتل عما له لمعارضة خطته فى مهاجمة قبيلة مجاورة .
وعندما توفى عثمان فى عام ١٣٢٦ كانت املاكه تمتد الى البحر الأسود والبوسفور ، حيث اقام عاصمته فى بروصة .

وقد اقتسم ابنا عثمان ادارة املاك أبيهما ، فكان الأكبر سلطانا والأصغر وزيرا . ومنذ ذلك العهد وخلال الـ ٥٩٦ عاما التالية حتى سقوط الامبراطورية العثمانية فى عام ١٩٢٢ ، تولى الحكم ستة وثلاثون سلطانا ، كلهم من سلالة عثمان مباشرة . ولم يكن ابنا عثمان يقلان عن أبيهما طموحا ومقدرة فى التنظيم العسكرى . فهما اللذان انشآ فرقة (الانكشارية) المشهورة ، فكانوا فى غالبيتهم من المجندين الروم الشبان الذين اصبحوا من رعايا السلطان بحكم فتوحات عثمان فى الأراضى البيزنطية ، وقد شكلت منهم فرقة كانت بمثابة الجيوش العثمانية .

وفى النصف الأخير من القرن الرابع عشر كان ما بقى

من الامبراطورية البيزنطية تمزقه الحرب الأهلية ، وقد انتهز الأتراك العثمانيون الفـــرصة فعبروا البوسفور وأقاموا رأس جسر في أوروبا ، ثم توغلوا حتى البحر الادرياتي وحدود هنغاريا ، عندما أضطر السلطان بايزيد الى استعادتهم لمواجهة آخر وافظع غزوات المغول . ففى عام ١٣٨٠ قام احد ابنـــــاء بلاد ما وراء النهر المسمى تيمورلنك ويدعى الانتساب الى جنكيزخان باحتـــــلال افغانستان ثم انقض على فارس وكردستان . وما لبث هذا الخطر المغولي الجديد أن اخذ ينتشر جنوبا وغربا ببطء ولـكن بقوة غـلابة . وفى عام ١٣٩٣ أســتولى تيمور لنك على بغداد واحتل ارض الجزيرة ، وهو يعمل تقتيلا فى زحفه على نطاق فاق ما كان يفعله جنكيز خان وهولاكو ، حتى كان يبنى أهراما من جماجم ضحاياه .

وعندما تحول بعد خمس سنوات الى الشرق واستولى على دلهى فى الهند ، ذبح ثمانية الفا من سكانها . وبعـد تحول قصير الى روسيا احتل اثناءه موسكو اكثر من عام وجه اهتمامه الى الشرق الأوسط مرة أخرى . ففى عام ١٤٠٠ اكتسح جيوش المماليك فى الشام وخرب حلب . وكانت أهرام الجماجم التى أقامها تضم عشرين الفا من رءوس ضـــــحاياه . وقد دمر كافة المســاجد والمدارس التى بناها صلاح الدين .

وفى نفس العام ســـقطت حمص وحماة وبعلبك فى ايدى المغول ، وفى فبراير ١٤٠١ دحر المماليك المدافعين عن دمشق وتم الاستيلاء على العاصمة الشامية . وقام تيمورلنك الذى ادى به التحول الى الاسلام الى اعتناق الهرطقة الشيعية بنهب وتدمير المدينة واحراق كل شىء فيها ولم يقنع تيمورلنك بهذا ، بل حمل معه الى عاصمته

فى سمرقند خيرة الصناع وارباب الحرف فى المدينة . وفى طريق عودته توقف فى بغداد حيث قتل بعض ضباطه بأيدى أهلها الغاضبين ، فأمر باعدام الرهائن بالجملة انتقاما ، واقام فى أرجاء المدينة اهرام الجماجم المعهودة . وكما فعل فى دمشق ، فقد نقل معه الى ممتلكاته فى الشرق مهرة الصناع والحرفيين .

حتى ذلك الحين كان الاتراك العثمانيون يقفون موقف المتفرج على هذه المجازر وقد تملكهم الرعب . ولكن تيمورلنك الذى لا يستقر ولا يرحم ما لبث فى عام ١٤٠٢ ان زحف على الاناضول . ولم يستطع حتى الانكشارية وقف الفيضان ، وسحق الجيش العثمانى امام انقرة واخذ السلطان أسيرا . وبدا الآن أن المغامرة العثمانية قد خنقت فى مهدها . ولكن وفاة تيمورلنك بعد عامين كانت بمثابة معجزة اوقفت الزحف المغولى عند حده ، كما حدث عند وفاة جنكيزخان قبل ذلك بمئة وستين عاما . وقد استطاع الاتراك والفرس والعرب أن يستردوا اراضيهم ، واصبح الاتراك الآن احرارا لكى يبدأوا من جديد خطتهم فى الهجوم الشامل الذى قدر أن يؤدى الى سقوط القسطنطينية وان يدفع بالجيوش العثمانية الى داخل البلقان الأوربية حتى ضفاف نهر الدانوب . وبحلول عام ١٤٥٣ كان الاتراك يحكمون من الدانوب حتى جبال طوروس .

ولم تلبث هذه النجاحات ان دفعت الأتراك العثمانيين لكى يوجهوا اهتمامهم الى الشرق والى الجنوب . وفى عهد السلطان سليم الرهيب تمكنت جيوشه من غزو فارس واحتلال عاصمتها تبريز . وفى العام التالى تقدمت جنوبا واستولت على ارض الجزيرة .

في هذه الاثناء كان السلطان المملوكي قنصوه الغوري في طريقه الى حلب وبرفقته آخر الدمى من الخلفـــاء العباسيين . وقد أعلن قنصوه عن رغبته في التوسط بين العثمانيين والفرس ، ولكن السلطان العثماني الذى رأى الفرصة سانحة للاستيلاء على الشام ومن بعدها مصر ، أعلن الحرب وهو مطمئن الى ان الشاميين لن يستطيعوا الصمود بحرابهم وسيوفهم أمام البنـــــادق والمدفعية الحديثة للأتراك . وفعلا فر الشـــاميون جماعات مع قادتهم ، وسقط قنصوه صريعا من فوق جواده مصابا بالشلل ، ودخل سليم حلب منتصرا . ولم يمض شهران حتى احتل الفاتحون العثمانيون الشام كلها .

وما لبث سليم ان زحف عبر فلسطين ليجعل من نفسه سيدا على وادى النيل . وكان تسليم المصريين قاصرا كذلك ازاء بارود ومدافع العثمانيين ، وكانت الحـــال أسوأ بسبب (الموت الأسود) الذى انتقل من أوروبا وفتك بعشرات الألوف من المصريين ، فضلا عمـــا تفشى فى البلاد من فساد الحكم المملوكى الى حد ان الســـلاطين أنفسهم كانوا يملأون جيوبهم باحتكار الحبوب والسكر لحسابهم الخاص مع تحريم زراعتهـــا على المواطنين . وكانت النتيجة المحتومة حدوث مجاعة فى البلاد ، مما أدى ، الى جانب الطاعون ، الى هلاك ثلثى سكان المملكة المملوكية فى مصر والشام . وهكذا فعندما تدفقت القوات التركية المملوءة فى البطون بالطعام والقوية التسليح الى داخل مصر لم تجد صعوبة تذكر فى التغلب على المدافعين المماليك والاستيلاء على القاهرة فى يناير ١٥١٧ . لقد سحقت الآن الأسرة المملوكية الحاكمة ، وسقطت المدن الباقية التابعة لها وهى مكة والمدينة فى الفلك العثمانى بطريقة آلية . وحمل الخليفة الألعوبة كأسير حرب الى

القسطنطينية التى أصبحت الآن العاصمة العثمانية الجديدة ، وكان ذلك ختام آخر الدعاوى لخلافة عربية .

وما لبث الاتراك العثمانيون ان انتشروا الآن بسرعة على امتداد ساحل افريقية الشمالى . وبعد سنة من سقوط القاهرة احتل قرصان تركى يدعى خير الدين — الجزائر . ومنح (الباب العالى) ، وهو الاسم الذى تسمت به الحكومة العثمانية ، خير الدين لقب (باى) ، وبعد ان خلف سليمان العظيم السلطان سليم زود هذا السفاح من بناة الامبراطورية بجيش من الانكشارية زحف به للاستيلاء على تونس فى عام ١٥٣٤ . وفى عام ١٥٥١ استولت جيوش السلطان بقيادة قائد البانى على طرابلس من فرسان القديس يوحنا فى مالطة ، وعلى مدار العشرين عاما التالية اكمل سقوط الحسا ، وكانت تشمل الكويت والبحرين ، وكذلك سقوط اليمن وعدن ومسقط — اكمل قائمة الفتوح العثمانية . وقد ساغ لسليمان ان يوجه خطابا الى ملك فرنسا بداه بقوله : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك .. ظل الله على الارض ، سيد البحر الأبيض والبحر الأسود ، وبلاد الروم واذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة وبيت المقدس وبلاد العرب واليمن واراض أخرى كثيرة ... أخضعتها جلالتى المعظمة لسيفى الملتهب وسلاحى المنتصر . انا السلطان سليمان خان ... اليك انت يا فرنسوا ، ملك أرض فرنسا » .

ومن الامبراطورية العربية القديمة ، كانت المناطق الوحيدة المستقلة هى مراكش وفارس وقلب شبه الجزيرة العربية الصحراوى . وبهذه الاستثناءات ،

بالاضافة الى اليمن التى اصبحت ملجأ للمتعاطفين مع الشيعة من العراق والبحرين والتى احتفظت لنفسها بامامة مستقلة من ١٦٣٣ الى ١٨٧٠ ـ كانت جميع المناطق المتكلمة بالعربية فى الامبراطورية قد أخضعت الآن للأتراك العثمانيين وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر . وما عجز العثمانيون عن انتزاعه كان يخضع لاحتلال أجنبى آخر . كانت بغداد يستولى عليها الفرس على فترات مختلفة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وظلت الولايات الشرقية فيما وراء النهر تحت أقدام المغول حتى الغزو الروسى ، وافادت كقواعد للاستيلاء على الهند واقامة امبراطورية المغول فى دلهى . وكانت اسبانيا قد استولى عليها ملوك أرغون وقشتالة المسيحيون . وتخلت القاهرة للقسطنطينية (التى سميت الآستانة) عن كونها مركز الثقل فى الاسلام ، واصبحت مجرد بلدة اقليمية . وباكتشاف فاسكو دى جاما لطريق راس الرجاء الصالح الى الهند فى عام ١٤٩٨ ، فقدت مصر والشام والعراق مركزها الاقتصادى واهميتها كطرق تجارية الى الشرق . واكمالا لقصة الاذلال العربى صار الدعاء يجرى للسلطان الخليفة التركى فى جميع انحاء الامبراطورية . ان الفساد الذى حل منذ سبعة قرون مع استقدام الجنود الاتراك بعد الخليفة المعتصم العباسى قد نخر طريقه فى النهاية فى قلب وروح الشعوب العربية . وعلى مدار معظم الثلاثمائة عام التالية وقع العالم العربى فيما سمى بعد ذلك برقاد العصور .

***

كان الأتراك العثمانيون نوعا غريبا من الامبرياليين . كانوا على استعداد لان يفعلوا اى شىء للتشبث

بامبراطوريتهم ما عدا ان يعيشوا فيها . وايثاراً منهم للبقاء كاقلية مسيطرة في وطنهم-باسيا الصغرى ، كانوا يحكمون ممتلكاتهم عن طريق نواب للسلطان من الاتراك يدعون باشاوات ، يتمكن الموظفون والجنود المحليون تحت امرتهم من التطلع الى اعلى مراكز السلطة والمسئولية، بما في ذلك منصب الوزير الأعظم ، وفي عاصمة كل أقليم كانت تلحق وحدة من الانكشارية كنواة لقوات الأمن والدفاع في الاقليم . اما الجانب الاكبر فكان يجند من أبناء الاقليم ــ البربر ، والاكراد ، واليونانيين ، والشراكسة ، والعرب ، والصقالبة ، والألبانيين ، والايطاليين ، والأرمن ــ الذين كانوا يخضعون لدورات تدريب وتوعية عنيفة في المدارس العسكرية التركية المحلية ، ويعتنقون الاسلام اذا دعت الضرورة .

ولم تلبث السلطات العثمانية ان سارت في الحكم سيرة تلك الأسر الحاكمة التي حكمت العالم العربي في عصور ماضية وحل بها التدهور ، وهكذا أصبح رعاياها مناط الاهمال بتأثير سوء الادارة . وقد جاء التدهور بعد نحو مئة عام من فتح الشام ومصر . وكان من أسباب التدهور فقدان الحافز الذي أعقب وقف توسع الامبراطورية عند نهاية القرن السادس عشر ، عندما وجد العثمانيون انفسهم مواجهين من كل جانب بحواجز منيعة ففي الشمال وقفت روسيا اثر فتحها لولايات الجيش الذهبي تسد الطريق امام مزيد من التقدم فيما وراء شبه جزيرة القرم والقوقاز . وفي الشرق طرد البرتغاليون البحرية العثمانية من المحيط الهندي . وفي الجنوب كانت الصحراء الافريقية تتحدى الغزو . وفي الغرب كانت جيوش آل هابسبرج قد هزمت كل محاولة للاستيلاء على فيينا . وبنهاية القرن السابع عشر كان

العثمانيون يتراجعون في أوروبا . فان الدول الغربية قد تشجعت بعد فشل هجومهم الثاني الكبير على فيينا في عام ١٦٨٣ . وبدأت بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا تتحرك في هجوم منسق ضد جيوش السلطان ، وبحلول عام ١٧٥٠ تم لها تطهير هنغاريا وترنسلفانيا وأجزاء من ولايات روسيا على البحر الأسود من الاحتلال العثماني . وعند هذا الحد بدأ الفساد كذلك في ممتلكاتهم العربية .

وليس من بواعث الدهشة أن التحدي الكبير الأول جاء من مصر . فهنا ، مثلما ، كان الحال في كل مكان آخر في امبراطوريتهم ، ترك (الباب العالي) الحكومة المحلية تعمل تحت اشراف الباب العثماني . وهكذا استمر المماليك في مصر والشام باعتبارهم تابعين للآستانة ، ولكن الباشوات الذين كان (الباب العالي) يرسلهم ليكونوا على رأس هذه الادارات الحكومية المملوكية كشفوا عن جهلهم المتزايد باللغة والعادات المحلية ، وبالتالي عن عجزهم وقصورهم . وفي خلال الـ ٢٨٠ عاما من الحكم العثماني المباشر تعاقب على مصر مئة من الولاة العثمانيين المختلفين . بل ان الشام شهدت تغييرات أكثر ، اذ كان الباشوات يتغيرون بمعدل واحد كل سبعة عشر شهراً .

وفضلا عن ذلك فان محنة الشعب وخاصة في مصر زادت تدهوراً في ظل الحكم العثماني . ففي خلال القرن السابع عشر ادى تفشي الطاعون والمجاعة مرتين الى القضاء على أكثر من ربع مليون من الناس ، وقضى بعد ذلك بمئة عام على أكثر من مليون من السكان . وكان حتما ان يحتوي هذا المزيج من اهمال الحكام وتعاسة المحكومين على المادة التي تتكون منها الثورات ، وقد جاء الانفجار في عام ١٧٦٩ عندما قام علي بك قائد الجيش المملوكي بطرد الباشا العثماني واعلان استقلال مصر .

كان على بك من المماليك الشراكسة ، وابنا لقس مسيحى ، وفى طفولته اختطفته عصابة من قطاع الطرق وبيع فى سوق الرقيق فى مصر ، حيث ارتقى الى أعلا المراتب فى جيش السلطان . وفى ذلك العهد كانت الامبراطورية العثمانية فى حرب مع روسيا لامتلاك شبه جزيرة القرم وغيرها من المستعمرات التركية على امتداد ساحل البحر الاسود . ولكى تتمكن (الباب العالى) من مواصلة الحرب امر على بك بتكوين جيش والاسراع الى مسرح العمليات . وهنا رأى المملوك الداهية فرصته ، وبعد أن تمكن من جمع الجيش ، انقلب على سادته العثمانيين ، وتغلب على الحامية الانكشارية ، وامر الباشا الوالى بالعودة الى الاستانة . وتقدم صهره محمد أبو الدهب للاستيلاء على مكة باسم على بك ، الذى نادى بنفسه سلطانا مستقلا لمصر وحاكما للبحرين (البحر الابيض والبحر الاحمر) . وفى عام ١٧٧١ زحف أبو الدهب على سوريا واستولى على دمشق بجيش من ثلاثين الف رجل . ولكن انتصار على بك كان قصير الأمد ، فان صهره القادر ما لبث ان انضم الى الاتراك مع الجزء الاكبر من الجيش المملوكى . وهكذا لم يجد على بك سوى الفرار الى فلسطين حيث انضم بقواته الى زعيم ثورى آخر من البدو كان قد استطاع أن يقتطع لنفسه مشيخة مستقلة تشمل عكا وطبرية . ولكن هذا التحالف لم يدم طويلا ، فقد تألبت على الاثنين قوى مشتركة من العثمانيين والمماليك والأمراء الشهابيين اللبنانيين ، وانتهى الأمر بقتل على بك فى عام ١٧٧٣ ، والزعيم البدوى بعد ذلك بعامين .

ويبدو أن الاتراك قد انهكهم هذا الصراع الذى اشتركت فيه روسيا أولا ثم الفرنسيون بعد ذلك عندما

ظهر نابليون على المسرح فى عام ١٧٩٨ . انهم ابتلعـــوا كبرياءهم وانحازوا الى شراء هدنة قلقة . فقد اعترفوا بالثائر أحمد الجزار الذى خلف الزعيم البدوى الذاهب واليا على الشـــــام ولبنان ، وعينوا الثائر السـابق (أبو الدهب) شيخا للبلد مع منحه سلطة الوالي . وعلى الرغم من ذلك فان الحكم التركى قد اهتز بصورة خطيرة ، وما أن انتهى القرن الثامن عشر حتى كان المسرح مهيأ لشخصية كبرى جاءت تتحدى مشيئة السلطان .

الفصل التاسع عشر :

يقظة جديدة في مصر

في يوليو عام ١٧٩٨ هبط نابليون بونابرت في الاسكندرية ، وبهذا غير وجه الشرق الأوسط كله . والواقع ان كل شيء حدث في العالم العربي في هذين القرنين الاخيرين يمكن تتبع أثره الى هذا الحدث الطوفاني . فان قيام محمد علي ، وتدفق تعليم الغرب وثقافته ومثله ، وهي التي بذرت بدورها بذور الفكر والعمل القومي العربي الحديث ، وكذلك اهتمام بريطانيا وفرنسا بالشرق الأوسط والمنافسة بينهما - كل هذه الاحداث تعزى مباشرة الى هذا الحدث الأوروبي الكبير . واهم من هذا كله فان حملة نابليون اخرجت مصر من دائرة النسيان كمجرد ولاية واعادتها الى مكان الصدارة في السياسة الدولية . وعلى الرغم من انه كان لابد من انقضاء مئة وخمسين عاما أخرى قبلما استعادت مصر في النهاية الاستقلال ، الا انها عادت منذ الآن فصاعدا الى سالف اهميتها كفيصل العالم العربي والمعبر الرئيسي بين الغرب والشرق .

ولكن وصول الجيوش الفرنسية الى الاسكندرية أثار اشد رد فعل من جانب الباب العالي . وكان نابليون يتوقع ذلك ، وفي محاولة لذر الرماد في أعين الاتراك فقد أعلن

لدى هبوطه انه جاء لمعاقبة المماليك الذين لم يكونوا مثال المسلمين الصالحين واستعادة سلطة السلطان التي اضرت بها ثورة علي بك . بيد ان الاتراك كانوا يعلمون جيدا ان غرض نابليون الحقيقي هو اقامة قاعدة فرنسية تمكنه من قطع اتصالات بريطانيا بالهند والشرق . وكانوا يعلمون أيضا انه لو نجح فان مصر وربما أقاليم عثمانية أخرى سوف تحتلها القوات الفرنسية على الدوام . واذا كانت السلطات العثمانية قد تسامحت خلال عشرات الاعوام الماضية وفتحت ممتلكاتها للتجـــار والمعلمين والمبشرين الفرنسيين ما داموا لا يسيئون الى الاسلام والمسلمين ، فما ينبغي لها أن تعامل القوات الفرنسية بهذا التسامح بأى حال .

وتبعا لذلك فبعد أن بانت نوايا نابليون الحقيقية بتوجيه ضربة ساحقة لجيش السلطان فى موقعـــة الاهرام ثم مطاردة الناجين عبر النيل حتى النوبة ، شرع (الباب العالى) فى حشد الجيوش من كافة أرجاء الامبراطورية لطرد الغـــزاة الفرنسيين . وفى هذا السبيل رحب السلطان بوصول الأسطول البريطاني ، واغدق الهدايا على قائده الأميرال نلسون ، الذى رد على كرم السلطان بهزيمة الأسطول الفرنسى فى خليج أبى قير ، وبعد ذلك بثلاث سنوات ، فى عام ١٨٠١ ، أعقبت وحـدات من الجيش البريطانى انتصار نلسون بدحر الجيش الفرنسى فى موقعة الاسكندرية . وهكذا أحبطت مطامع نابليون فى الشرق ، وبانسحاب قواته من مصر ، تهيأ للسلطان العثمانى أن يتنفس الصعداء من جديد .

ولكن ما أن تمت ازاحة الغـزاة الفرنسيين حتى بدأ تهديد جديد للسيادة العثمانية فى مصر يتشكل . فقد

كان بين قوات الاحتياطي الكثيرة التي جرى تجنيدها من الممتلكات العثمانية ضد نابليون في جنوب شرق أوروبا ضابط شاب في قوات السلطان الألبانية يدعى محمد علي ، أدى ولد في قولة قرب سالونيك في عام ١٧٦٩ من أب كان بائع دخان ، وبدأ حياته محصلا للضرائب في خدمة الوالي المحلي ، واستطاع بأساليبه اللولبية أن ينال اهتمام الوالي الذي زوجه ابنته وعينه في الميليشيا المحلية . وهكذا وجد محمد على نفسه في الطريق الى مصر يشغل المركز الثاني في كتيبة من الجنود غير النظاميين العثمانيين الذين جندهم السلطان من كل مكان لمحاربة الفرنسيين .

وعلى الرغم من أنه لم يلعب دورا فعالا في العمليات الحربية ضد الفرنسيين ، ألا أنه شق طريقه الى القمة بسرعة بالغة ، ففي مدى عامين من وصوله في عام ١٧٩٩ رقي الى رتبة كولونيل في أركان حرب الباشا التركي ، والى المركز الثاني في قيادة القوات الألبانية التي شكلت الجانب الأكبر من الحامية التركية في مصر .

وسرعان ما فتحت هذه النظرة النافذة الى الحكومة والحامية في مصر عن محمد علي الى امكانيات ازاحة النير العثماني ، باتخاذ الألبان كراس حربة في الثورة، وبالاستناد الى مؤازرة المماليك ، وقد بلغ به الطموح حدا جعله يتخيل نفسه باني امبراطورية جديدة . وهكذا لم يلبث أن انغمس في التآمر ضد سادته الأتراك ، ولعب دورا رئيسيا في المؤامرة التي ادت في عام ١٨٠٣ الى تمرد الحامية الألبانية بحجة عدم دفع الرواتب المتأخرة شهورا عده .

ولقد لقي التمرد الذي قاده طاهر بك وهو قاطع طريق

سابق تولى قيادة القوات الألبانية نجاحا تاما . فقد استولى الالبان بانضمام المماليك اليهم على القلعة مقر الحكومة ، ودفعوا الباشا الى الفرار . ومن حسن حظ محمد على ان طاهر بك قتل على الاثر ، فكانت له قيادة الالبان ، وبالأحرى القاهرة . ومنذ الآن أخذ يلعب دوره بدهاء تام وخداع لا هوادة فيه ، فراح يؤلب المماليك على الاتراك وهؤلاء على أولئك ، منتهزا كل فرصته لتوطيد مركزه شخصيا . وبعد أن قتل المتمردون الالبان أول بديل أرسله الباب العالي مكان الباشا المطرود ، قرر محمد على الآن ان من السياسة مجاراة الاتراك مؤقتا ، فانقلب على المماليك وأعلن تأييده للوالي الجديد خورشيد، الذى وصل فى مارس ١٨٠٤ . ولكنه راح يعمل دائبا تحت قناع التعاون الظاهرى لاستمالة الشعب ورجال الدين فى القاهرة ، باستغلال كافة المظالم ضد الحكم العثمانى.

ومع تصاعد الأزمة فى العاصمة ، بدأ خورشيد يرتاب فيما يتظاهر به محمد على من الولاء ، ولكى يتخلص منه دون أن يثير صداما سافرا ، عينه باشا جدة فى الحجاز . فرد محمد على على هذه البادرة بأن أمر ببساطة الالبان بالقبض على خورشيد ، بينما خرج أهل القاهرة من جانبهم الى الشوارع يهتفون مطالبين بتعيينه واليا . ولكنه بما انطبع عليه من الدهاء قاوم هذه المطالب وانتظر ان يقوم الباب العالى بالخطوة التالية . وقد بدات الأحداث الآن تتلاحق فى صالح محمد على فان تردد الباب العالي وخوفه من تحدى الالبان الذين كانوا الآن فى موقف السيطرة حملا السلطان على ايفاد مبعوث خاص للتحقيق والاستقصاء والتوصية بحل للمشكلة . وقد ابدى المبعوث فى النهاية ان محمد على هو بلا شك

اقوى سلطة فى البلاد وهو يستند الى الحـــــامية الألبانية وأهل مصر الذين يقفون خلفه بصلابة . وفى يوليو ١٨٠٥ رضخ الباب العـالى للمحتوم وأنعم عليه رسميا بباشوية مصر .

لقد حقق محمد على أول حلم من أحلامه . وما لبثت شهيته الى السلطة ان تزايدت ، وسرعان ما بدات تخامره احلام أكبر . وكان فى الحق قاب قوسين من النجاح فى مشروعاته لو لم يتدخل لورد بالمرستون وزير بريطانيا لكبح جماحه ، لا حبا فى الامبراطورية العثمانية ، ولكن خوفا على الطريق البرى الى الهند . فبعد الذى تحملته بريطانيا لـكى تعيد سلطة السلطان عندما كاد نابليون أن يقضى عليها ، ما كانت لتسمح الآن لمحدث النعمـة هذا بأن يقف موقف التحدى للسلطان ولها معا . فكان لابد لها من وقف اطماعه التوسعية .

وجاءت الخطوة البريطانية الأولى ضــــد باشا مصر الجـــــديد فى مارس ١٨٠٧ ، بعــد أقــل من سنتين من تعيينه فى منصبه . فقد جاءت قوة بريطانية فى مصر بقصد الانضمام الى المماليك وطرد محمد على . ولكن الخطة كان نصيبها الفشل . فان لندن لم تضع فى حسبانها ان المـــاليك رغم رغبتهم فى التخلص من الباشا الذى انقلب عليهم ، كانوا الآن بعد هزيمتهم على ايدى الفرنسيين فى موقعة الأهرام شراذم ضعيفة مبعثرة فيما بين القاهرة والنوبة ، ولم يعودوا قوة مقاتلة قادرة . ولهذا لم يجد الألبان الخاضعون للباشا صعوبة فى عزل وهزيمة القوة البريطانية الصغيرة عند نزولها الى شواطىء الاسكندرية .

قرر محمد على الآن ان يتخلص نهائيا من المماليك . فعلى الرغم من تفرقهم وضعفهم كان مجرد وجودهم يشكل

دعوة للتدخل الأجنبى وللغزو الخارجى ، وقد اصبحوا الآن خطـــرا محتملا . ومن ناحية أخرى فان المماليك بدورهم قرروا أن يقوموا بالضربة الأولى ، فتآمروا على أغتيال الباشا فى الاحتفال السنوى بوفاء النيل . ولكن المؤامرة اكتشفت ، واستدرج القتلة المحتملون انفسهم الى كمين كانت فيه نهايتهم .

لقد حزم الباشا أمره ، وبهدوء وبرود ملك من ملوك الجريمة رسم خطة لابادة ضباط المماليك . فاوهمهم أولا بأنهم سيكونون طليعة جيش ينتوى ارساله الى الحجاز لصد غزو من جانب زمرة متعصبة من نجد ، ودعاهم الى استعراض يقام فى القلعة توطئة لسفرهم . ولعله ممـا لا يصدق فى هذا الجو المشحون بالمؤامرات والمؤامرات المضـادة أن يقبل المماليك استدراجهم الى هـذا الفخ الجهنمى . ولعلهم فطنـــوا الى ما يدخر لهم وقرروا المقاومة . وعلى أى حال فقد توجهوا الى القلعة ، وما ان اجتاز بكوات وضباط المـــاليك ، مدخلها حتى أغلقت الأبواب من خلفهم واطبقت عليهم المصيدة .

استقبل محمد على قادة المماليك بالترحاب وقدم لهم (الشربات) . ولدى اشارة معينة انقض حرسه الألبان على ضيوفه وذبحوهم ذبحا ، بينما انطلق وابل منهمر من الرصاص من ابراج القلعة وحصد ٤٧٠ من الضباط المحصورين فى الخارج ، ولم ينج منهم سوى واحـد قفز بجواده من فوق سور خلفى فقتل الجواد ونجا الراكب الذى أفلت رغم اصـــــابته واختبأ بمســـاعدة بعض الأصدقاء .

لم يقتنع محمد على بهذه المذبحة ، فبعث بقواته لتعقب بقية جند المماليك واقتناصهم . وكانت القاهرة مسرحا

لاعمال السلب والنهب مدى ستة أيام ، بينما كان الجنود الالبان يستمتعون بجزية كاملة لقتل أى مملوك يجدونه وسلب ممتلكاته . وارسل الباشا ابراهيم ابنه الأكبر عبر النيل للقضاء على فر من المماليك الى الوجه القبلى أمام الغزو الفرنسى . وقد أفلحت طائفة منهم فى الهرب الى السودان ، ولكن بحلول عام ١٨١١ كانت القلة الحاكمة المتكبرة التى أخرجت الصليبيين فى النهاية وردت الموجات المغولية على أعقابهـــا وحكمت مصر والشام ما يزيد على ٢٥٠ سنة من الاستقلال ــ قد أبيدت فى مذبحة من أدق المذابح تخطيطا وتنفيذا منـــذ أن قضى العباسيون على الأمويين .

تحول محمد على الآن الى الحرب فى الحجاز ، حيث كان الوهابيون وهم طائفة جديدة متشددة من المسلمين السنيين قد اســـتولوا على مكة والمدينة واستقلوا عن الباب العـــــــالى . كان الوهابيون ، وهم سلف العرب السعوديين اليوم ، يعتبرون الأتراك خارجين على الاسلام لخرقهم تعاليم القرآن،مثل شرب الخمر والميسر والفسق والوثنية ، ورأوا أن مدن الاسلام المقدسة يجب أن تطهر منهم . وقد قويت الحركة الوهابية بانضمام محمـــد بن سعود الجد الأعلى للملك سعود مؤسس العـــــــربية السعودية اليها . وفى عام ١٨٠١ نهب الوهابيون وحلفاؤهم كربلاء المركز الرئيسى للشـيعة ، ثم استولوا على مكة والمدينة ، وبحلول عام ١٨٠٥ كانوا قد اجتـاحوا الشام والعراق ، وبهذا مدو ممتلكاتهم من بالميرا الى عمان .

لقد انزعج الباب العالى انزعاجا شديدا من هذه الغزوات فى أراضيه ، وطلب الى محمد على أن يرسل جيشا الى الحجاز لطرد الوهابيين . فرحب الباشا بهذه الدعـوة

التى رأى فيها فرصة ذهبية لتوسيع رقعة ممتلكاته . ولكن الحملة التى ارسلها بقيادة طوسون ابنه الأصغر الذى لم يبلغ السابعة عشر من عمره منيت بالهزيمة ، وتساقط المصريون كالذباب بفعل الوباء ونيران الوهابيين ، وظلوا عامين يعانون هذا الشقاء الى ان خف اليهم محمد على شخصيا فى عام ١٨١٣ ومعه التعزيزات . وقد كان لهذا أثره فى رفع الروح المعنوية للجنود المصريين . ثم تغير الموقف بالتدريج وأصبحت الغلبة للمصريين باسناد القيادة الى ابراهيم بعد فراغه من ابادة المماليك فى الوجه القبلى . وساعد على ذلك ما شجر بين الزعماء الوهابيين من الشحناء والمنافسة . وقد تم استرداد مكة والمدينة ، وفى عام ١٨١٨ انتقل ابراهيم لغزو نجد وتحطيم الدرعية عاصمة الوهابيين . لقد تم الانتصار للباشا ، ولكن فقط بعد سبع سنوات من القتال وبثمن بلغ اربعة أخماس قواته التى استخدمها فى المعارك ، بما فى ذلك ابنه طوسون الذى توفى بالطاعون قبل النصر النهائى .

لم يتوقف محمد على سوى فترة قصيرة قبلما أقدم على مغامرته التالية ، وهى غزو النوبة وكردفان فى السودان ، متأثرا بقصص بعض الرحالة عن وجود الذهب هناك ، وهو ما تبين خطؤه فيما بعد . ففى عام ١٨١٩ اتجه ابن آخر له هو اسماعيل فى النيل على رأس حملة . ولكن قدر للباشا ان يمنى مرة أخرى بخسارة شخصية . فقد اشعلت النار فى معسكر اسماعيل الذى مات حرقا . وانتقاما لمصرعه دفع عشرون الفا من النوبيين حياتهم ثمنا ، وخضع شمال السودان وأصبح جزءا من امبراطورية محمد على المتزايدة . ولكن المذبحة التى ارتكبت باسمه خلقت فى قلوب السودانيين نارا من الكراهية سوف تعود الى الاتقاد بعد ذلك بخمسين عاما .

وقد سنحت لمحمد على فرصة أخرى لتوسيع ممتلكاته عندما نشبت قلاقل فى جزيرة كريت وعرض عليه السلطان الجزيرة فى عام ١٨٢٢ اذا اخمد ثورة اليونانيين بها ، فرحب محمد على بهذه الفرصة ، وبعد سنتين اضاف كريت الى امبراطوريته المتزايدة .

ولكن روح القومية اليونانية ما لبثت ان انتشرت فى اليونان ذاتها ، وقامت ثورة خطيرة فى شبه جزيرة المورة . ومرة أخرى اتجه السلطان الى محمد على وعرض عليه المورة ثمنا للمساعدة ، مع الشام ايضا نزولا على رغبته . وفى يوليو ١٨٢٤ أرسل ابنه ابراهيم الى اليونان مع جيش قوامه ستة عشر الفا ومئة سفينة نقل وثلاث وستين سفينة حربية . وقد سارت الأمور على ما يرام أول الأمر بالنسبة للقوات العثمانية ، واستطاع ابراهيم طرد اليونانيين والاستيلاء على أثينا . ولكن عند هذا الحد ظهرت فى الصورة كل من بريطانيا وروسيا وفرنسا فى محاولة لوقف القتال . وقد توسل البريطانيون بالضغط على محمد على للمفاوضة والانسحاب من المورة . وعندما فشل أسلوب الدبلوماسية عمدت بريطانيا وفرنسا الى استخدام القوة . ففى اكتوبر عام ١٨٢٧ ظهر اسطول انجليزى فرنسى قوى أمام القاعدة التركية فى نفارين قابله الأتراك بالنيران . فردت السفن الحربية المشتركة بالمثل ، وعندما انقشع دخان المعركة منيت قوات السلطان التركى والباشا المصرى البحرية بخسائر فادحة ، فقد اغرقت سفنهما البالغ عددها ٧٨٢ ولم يبق منهما سوى ٢٩ سفينة ، وازاء هذه الكارثة كان غضب محمد على لا حد له ازاء عجز الأتراك الذى كلفه خيرة سفن اسطوله ، وأمر ابنه ابراهيم بالانسحاب وترك المورة للثوار . ولكن بعد مضى أربع سنوات ، واذ لم يقم السلطان بتسليمه الشام

كما وافق من قبل ، بعث الباشا بابنه ابراهيم على رأس جيش من ستة عشر الف رجل للاستيلاء على الشام باسمه .

لقد أصبحت مهمة ابراهيم أيسر بانضمام الامير اللبناني بشير الشهابي الى جانبه وكان موتورا من السلطان . وفيما بين عام ١٨٣١ والسنة التالية تمكنت القوات المصرية اللبنانية المشتركة من الاستيلاء على بيت المقدس ويافا وعكا ودمشق . وكان رد الفعل من جانب الباب العالي هو عزل محمد على من الولاية على مصر . وثنى بحشد جيش من عشرين ألفا من الأتراك زحف لصد ابراهيم ، ولكنه منى بالهزيمة ، وواصل المصريون زحفهم للاستيلاء على حمص وحلب ، وأصبحوا مرة أخرى سادة (سوريا الكبرى) ، بما فيهم فلسطين ولبنان . وبحلول شهر نوفمبر عبر ابراهيم جبل طوروس واستولى على أطنة وقونية ، وأصبح الطريق الى الآستانة الآن مفتوحا أمامه ، ووقف السلطان المرتجف ينتظر الضربة النهائية .

لكن هذه الضربة لم تأت قط . فاذ وقف ابراهيم على تمام الأهبة للقضاء على الامبراطورية العثمانية،آثر محمد على الانتظار فترة لمعرفة ردود الفعل من جانب أوروبا . ولو أنه واصل الضغط وقتذاك لتغير مجرى التاريخ . فليس من شك فى أنه كان يستطيع الاستيلاء على الآستانة والمناداة بنفسه سلطانا بمساعدة روسيا . ولكن آخر شيء كان يريده البريطانيون والفرنسيون هو وجود الروس بعد ذلك على ضفاف البوسفور وحرية انتقال سفنهم الحربية الى البحر الأبيض المتوسط . وتبعا لذلك ما أن بدت أول اشارة بأن حكام سانت بطرسبرج قد أخذوا يشحذون مداهم استعداداً لزحف

ابراهيم على الاستانة ، حتى بادر بالمربستون فى لندن باصدار انذار شديد الى الباشا بوقف تقدمه فى آسيا الصغرى .

كان لهذا الانذار تأثيره . فقد قرر محمد على الا يناجز بجيشه القوى الاوربية اكثر من هذا القدر ، وأمر ابراهيم بالعودة الى سوريا ودعم فتوحاته . واعرابا من السلطان عن شكره على خلاصه ، أعاد تعيين محمد على واليا على مصر ، واعترف بغزوه لسوريا . والواقع ان سوريا فى ظل حكم ابراهيم المستنير نعمت بعهد من السلام كان فيه المسلمون واليهود والمسيحيون يحترمون أديان كل منهم بدرجة من التسامح لم تعرف طوال سنوات الحكم العثمانى . ولكن تمتع سوريا ومجد محمد على لم يقدر لهما الدوام أكثر من سنوات قلائل ، ذلك لأن بريطانيا قررت الآن انه لابد من سحق الباشا نهائيا : واذا كان السلطان قد انحاز الى الاستسلام فان بالمرستون لم يكن مستعدا لقبول الأمر الواقع . ومنذ ذلك الحين بدأ بضغط على الباب العالى لطرد محمد على من مجال فتوحاته .

الفصل العشرون :

إعتداءات أوروبا

في مايو ١٨٣٨ استدعى محمد على القناصل العامين لبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وأعلن أمامهم وسط الدهشة استقلاله التام والنهائي عن السلطان العثماني .

لقد احدث الاعلان رد فعل شديد الغضب من جانب لندن واحتجاجات أقل شدة من باريس والعواصم الاوروبية الأخرى . وجرى الضغط على الباب العالي للبت في أمر هذا الحديث النعمة المغتصب لسلطة السلطان . ولكن كان ما يزال أمام الأتراك سنة كاملة لاتمام تجهيز جيش ضخم يضم نسبة كبيرة من الضباط الألمان تحت قيادة القائد البروسي فون مولتكه كانوا يعدونه لاخراج ابراهيم من الشام ، وعندما جاء الصدام النهائي في عام ١٨٣٩ ردهم ابراهيم الى الاناضول مدحورين . وبعد أسابيع قلائل وجه محمد على ضربة جديدة . فقد استطاع عن طريق الرشاوى والوقيعة اغراء أحمد باشا القائد البحرى للسلطان للتوجه بالأسطول العثماني الى الاسكندرية .

وعلى الرغم من ان رد الفعل من جانب الباب العالي كان هو قبول النكسة ، الا ان ذلك كان في نظر بالمرستون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . فقد رأى الآن

بوضوح انه ما لم يتخذ اجراء حاسما فان الامبراطورية العثمانية ستسقط كتفاحة فاسدة فى حجر محمد على . وفى أوائل عام ١٨٤٠ أعلنت القوى الغربية بزعامة بريطانيا تأييدها العسكرى الكامل للسلطان ، وارسلت الى محمد على انذارا نهائيا بأنه اذا لم يستسلم فى الشام ويسلم أسطول السلطان فى ظرف عشرين يوما فسوف يفرض عليه حصار بحرى ويحرم من جميع اراضيه والقابه .

كان محمد على أكثر ميلا الى الفرنسيين بعد أن استخدم ضابطا فرنسيا هو الكولونيل سيف الذى تخلف بعد انسحاب نابليون واعتنق الاسلام لتمصير جيشه وتنظيمه. وبالرجوع الى مشورة قنصل عام فرنسا فى هذا الموقف أشار عليه بالثبات فى الشام وبالاحتفاظ بأسطول السلطان ولكن مع عدم القيام باستفزازات اخرى ، مؤكدا له ان العاصفة سوف تهدأ وأن البريطانيين لا يلبثون ان يفقدوا حماسهم للقضية التركية .

والواقع انه لم يكن ثمة أسوأ من هذه النصيحة . فان بالمرستون حزم الآن أمره ، وبعد انقضاء مهلة العشرين يوما نزلت فى الشام قوة مشتركة من الانجليز والاتراك بمساعدة الأسطول البريطانى ، بينما ضربت وحدات بحرية بريطانية اخرى الحصار على الساحل المصرى ، واستولى الغزاة على بيروت وعكا . وبينما ابحرت قوة صغيرة تحت قيادة الكومودور نابيير الى الاسكندرية لمفاوضة الباشا فى الاستسلام ، تابعت القوة التركية الانجليزية هجومها وانزلت الهزيمة بابراهيم فى اشتباك بعد آخر . وقد سقطت صيدا ومن بعدها طرابلس ثم طرطوس . ولم يلبث الأمير بشير الشهابى ان خار عزمه وفر مع قواته

اللبنانية المؤلفة من خمسة عشر الفا . وعلى الرغم من أن المصريين استبسلوا فى القتال الا أن خسائرهم كانت تتزايد باطراد . وقد اضطر ابراهيم تحت ضربات الأسطول البريطانى من البحر ومطاردته من معقل الى آخر فى البر - الى الانسحاب فى النهاية مع بقية جيشه .

وفى مصر عندما اقترب نابيير من الاسكندرية كان الباشا الذى تقدمت به الآن السن يتميز غضبا اذ لم يحرك الفرنسيون ساكنا لمساعدته ، وخصوصا ان ابراهيم الذى كان يتراجع من الشام فقد كل اتصال مع القاهرة .

والواقع ان انسحاب ابراهيم كان صورة مصغرة لانسحاب نابليون من موسكو ، فقد خسر أكثر من نصف جيشه وهو يشق طريقه عائدا الى مصر ، وكان معظم الناجين فى حالة يرثى لها . وخوفا من حدوث متاعب من جانب سكان القاهرة عندما كانت البقايا المنكودة تتعثر فى طريقها الى العاصمة ، اعلن محمد على ان الجرحى هم من الأسرى البريطانيين والأتراك . ولكن الحقيقة تسربت ، وأصبح مزاج الشعب مستطيرا ينذر بالخطر ، حتى بعد أن سلم ابراهيم قصره فى القاهرة ليكون مستشفى للمرضى والجرحى من جنوده . وزاد الطين بلة ان رئيس الوزراء الفرنسى أعلن فى خطاب له انه « اذا خضع باشا مصر فى وقت مبكر ، فقد تترك له مصر مع الوراثة فى أسرته » . هكذا أسفرت فرنسا عن وجهها فى النهاية ، وبدا واضحا ان افضل ما يمكن أن يؤمل فيه الآن هو الاحتفاظ بباشوية مصر . فقد ضاعت الشام الى الأبد ، وضاع معها حلم محمد على فى امبراطوريته .

بعد أيام قليلة وصل الكومودور نابيير الى الاسكندرية . وكانت الشروط التى عرضها على محمد على كرسول

للفاتحين البريطانيين هي اعادة اسطول السلطان الى صاحبه الشرعي ، والتخلي عن مطالبه في الشام ومكة و (المدينة) . وفي مقابل ذلك تستخدم بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا نفوذها لدى الباب العالي لضمان استمرار الاعتراف به واليا على مصر .

لم يكن أمام محمد على من بديل سوى قبول هذه الشروط . وفي نوفمبر عام ١٨٤٠ سلم الاسطول العثماني . وفي يناير من العام التالي ثبته السلطان العثماني مرة أخرى واليا على مصر . لقد رجع محمد على الى حيث بدأ . ولكنه نال ما بعده أهم هدف بقى في حياته ـ وهو الحق في تأسيس أسرة حاكمة من نسله . أما عن مغامرته في الشام فقد كانت نتيجتها عكس ما كان يأمل في تحقيقه . فانه لم يفشل فقط في الحلول محل السلطان كحاكم أعلى للعالم العربي،ولكن بريطانيا أصبحت الآن أثبت قدما من فرنسا في الشرق الأوسط ،ووطدت ارتباطا مع الامبراطورية العثمانية سوف يستمر لأكثر من سبعين عاما الى أن سمح أعضاء جماعة تركيا الفتاة لأنفسهم بالانسياق في مشروعات قيصر ألمانيا للسيطرة على العالم . ووحدت بريطانيا نفسها ، على كره منها نوعا ، تؤيد الثورة العربية التي قام بها حسين أمير مكة .

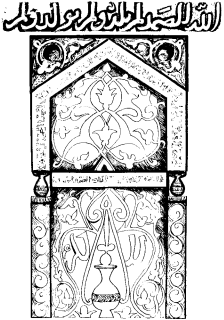
وحوالي النهاية لم يعد محمد على متمالكا لقواه العقلية. وبدأت تنتابه نوبات من الغضب الجامح والنورستانيا اليائسة . وعندما توفى في النهاية عن ثمانين عاما ، في أغسطس ١٨٤٩ ، كان قد بلغ حد الخرف الكامل .

***

قيل انه مؤسس مصر الحديثة ، ولكنه كان يستخدم أساليب قاسية لابتزاز الضرائب من رعاياه حتى يدفع

رواتب جنوده وتكاليف تطوير البلاد . وكان التعـــذيب بالقلعة أى جلد الاقـــدام بسياط من جلد الجاموس هو أسلوبه فى معاقبة المتهربين من الضرائب والتجـــار الجشعين . واشـــــــد من هذا انه حول معظم الاراضى الصالحة للزراعة فى مصر ، بما فى ذلك دلتا النيل كلها ، الى ضيعة شخصية للباشا (وكثـير من هـــذه الاراضى الهائلة ظل فى يد حفيدة فاروق حتى ثورة ١٩٥٢) ، وان لم يشفع فى هذا النهب بعض الاصلاحات التى قام بها ، كالاستعانة بالعلماء والفنيين الاوروبيين لتنمية موارد مصر ، وادخال زراعة القطن من السودان ، وانشاء اول مدارس للهندسة والطب الحديث بمصر . ولا يعنى هذا انه ... نشر فى مصر او سعى بصـــــــورة جدية الى التقليل منه . فالواقع ان الفلاحين كانوا لا يزالون يعيشون عيشة الفقر المدقع فى عام ١٨٥٠ ، وكانوا أكثر الوقت لا ينالون ثمن المحاصيل التى يستولى عليهـــا مفتشوا الحكومة لبيعها لصالح الدولة . وكانت كل التجارة ، من واردات وصادرات ، وارباح المقاهى ، ومبيعات الغلال أو حتى الأشجار ، تخضع لضريبة قدرها ١٠ فى المائة . ولكن البيوت والارض كانت معفاة ، حتى ان اكبر مالك للارض فى مصر او المالك الوحيد بالفعل ، وهو الباشا ، لم يكن يدفع ضريبة على ممتلكاته . وهكذا كانت الفوارق بين الأغنياء والفقراء شاسعة . ولا عجب أن يكون هذا بعد أن قام حكمه على الســـــكرباج والابتزاز واغتصاب الاراضى .

وعلى النقيض من ابيه نهج ابراهيم فى الشام نهجا قائما على التعـــاون مع الأهلين والتسامح حيال الاديان الثلاثة . واذا كانت مأساة الشام حرمانها من حكم ابراهيم


الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم

السمح نيفا وتسع سنوات بسبب تدخل بالمرستون — فقد كانت مأساة مصر أعظم اذ لم يعش بعد وفاة أبيه ليشرف على بناء قناة السويس ، فلو ان هذا حدث لكان من المرجح الا تخسر مصر نصيبها فى هذا الاستثمار الضخم . لكن الذى حدث هو أن اسماعيل بن ابراهيم الذى تولى باشوية مصر فى عام ١٨٦٣ أسرف وتخبط فى الانفاق حتى رهن مستقبل مصر كلية بعد اثنى عشر عاما ، واضطر الى بيع حصة مصر فى شركة قناة السويس الى الحكومة البريطانية . وهكذا أهديت الى بريطانيا ، ومعها فرنسا ، الرقابة المالية على مصر . بعد هذا لم تكن الحكومة البريطـــانية بحاجة الا الى ثورة مسلحة ضد (المراقبين) لتكون ذريعة لفرض احتلالها العسكرى على البلاد . فعندما قامت ثورة أحمد عرابى على راس الجيش المصرى فى عام ١٨٨٢ ضد الحكم الاستبدادى للخديوى توفيق وضد الرقابة الانجليزية الفرنسية ، تحالفت عوامل كثيرة للقضاء على الثورة فى موقعة التل الكبير . ومنذ ذلك الحين أصبح القنصل البريطانى العام سير افلين بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) حاكم مصر الفعلى ، بمساعدة جيش احتلال بريطانى يساند كل قراراته .

ريح التغيير

الفصل الحادى والعشرون :

ثورة المهدى

يعادل السودان فى مساحته أوروبا الغربية بما فيها اسكنديناوه . وفى التاريخ القديم لم تتعرض له الامبراطورية الرومانية . اما النوبة التى تبلغ مساحتها ربع مساحته ، فقد فتحتها الجيوش العربية ثلاث مرات . انتزعها صلاح الدين لتكون ملجأ له عندما خشى ان يعزله من حكومة مصر نور الدين . وفتحها بيبرس كعمل مباشر من أعمال التملك الامبريالى . واخذها محمد على لاعتقاده الخاطىء بانه سيجد فيها الذهب .

وكانت النوبة منذ العصور القديمة منغمسة فى تجارة الرقيق . بل ان مناطق اخرى مثل كردفان ودارفور وبحر الغزال والاستوائية ظلت تشتغل بتجارة الرقيق حتى عام ١٨٧٧ ، عندما عين اسماعيل خديوى مصر الجنرال غوردون البريطانى حاكما عاما على هذه البلاد المترامية الأطراف ، اذ كان يعلم تماما ان غوردون سوف يقضى على تجارة الرقيق بعد أن كان المحافظون الأتراك قد أفسدوا كل شيء . واذا كان غوردون قد وفق فى هذه المهمة ونال احترام السكان بالقضاء على تجارة الرقيق والرشوة والفساد — فان تآمر بريطانيا مع الباب العالى فى عام ١٨٧٩ الذى أسفر عن طرد اسماعيل وتولية ابنه

توفيق ، حمل غوردون على الاستقالة كحاكم عام .

وكان خلفه رءوف باشا أسوأ شخصية يمكن ان يقع عليها الاختيار . فقد عادت الرشوة والابتزاز والفساد فى كل مكان . واصبح السودان الآن مهيأ للثورة التى لم تكن تتطلب سوى زعيم يذكى نارها . وفى غضون سنة من رحيل غوردون وجد هذا الزعيم فى شخص محمد احمد بن سيد عبد الله ابن احد بنائى الزوارق النيلية ، الذى اتخذ لنفسه فى عام ١٨٨٠ لقب (المهدى) ، واقسم ان يخلص الشعب السودانى من ظالميه .

ولد محمد احمد عام ١٨٤٨ فى دنقلة عاصمة النوبة . ودرس فى أول حياته الفقه الاسلامى ، ثم انتقل الى بربر لدراسة تؤهله لوظيفة دينية . وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى اعترف به الكثيرون واعظا ومعلما . وايثارا منه للزهد والتقشف عاش فى غار بجزيرة أبا القريبة من بربر حيث كان وعظه ينفذ الى القلوب .

وكان منذ أوائل حياته يكره الأجانب الذين يحكمون وطنه ، سواء كانوا من أصول تركية أو ألبانية أو شركسية وما اليها . وكانت خطوته العملية الأولى هى الطواف والقيام بعملية استكشاف واسعة فى النوبة وكردفان لتقييم استعداد الشعب للثورة .

كانت رحلة باعثة على الرضا ، فعاد الى أبا وبدأ يدعو الى التمرد السافر على الاتراك . وكان يربط فى دعوته بين الاصلاح الاجتماعى والبعث الروحى . ولم يلبث ان اكتسب زمرة من المريدين فى مقدمتهم عبد الله التعايشى الذى ينتمى الى قبيلة البقارة وهم فرسان اشداء من تلال النوبة .

واذا كانت السلطات لم تقم له وزنا فى أول الامر ، فان رءوف باشا لم يلبث ان تحرك للقضاء على الثورة فى مهدها بعد انضمام قبيلة البقارة بكاملها الى المهدى ، فأرسل قوة من مائتى جندى بقيادة ضابط للقبض على محمد أحمد ومحاكمته . ولكن القوة وقعت فى كمين من اتباع المهدى وارتدت مهزومة الى العاصمة فى الخرطوم . وكان هذا أول صدام مع السلطات لصالحه ، مما زاد من مكانته .

وفى هذه المرحلة اختار المهدى ان ينسحب الى كردفان ليكون بعيدا عن مركز الحاميات الرئيسية ولمزيد من تأييد القبائل له . وفى ديسمبر عام ١٨٦١ هاجم قوة من الف واربعمائة جندى أوقعها فى كمين وابادها وغنم اسلحتها الحديثة وذخائرها ، الأمر الذى ضاعف من قوته اذ كان رجاله مسلحين بالعصى والرماح فقط .

ولم يلبث محمد احمد ان أعلن (الجهاد) ضد الاتراك وجميع الكفار فى السودان . ولجأ الى أسلوب حرب العصابات التى اوهنت من عزائم جنود الحكومة خصوصا فى حر السودان وغباره . وفى يونية عام ١٨٨٢ هزم قوة حكومية قوامها ستة آلاف جندى بالقرب من فاشودة ، وبعد أشهر قلائل كان رجال المهدى يسيطرون على كل كردفان ودارفور ، وفيما عدا مدينتى الابيض ودرة مقر الحاميات الرئيسية .

كانت الأبيض مدينة كبيرة عامرة بها مئة الف من السكان . وقد حاول المهدى أول الأمر الاستيلاء عليها بالقوة ، بيد انه فشل وخسر زهاء عشرة آلاف رجل . ففرض عليها حصارا شديدا دام ثلاثة أشهر حتى استهدفت الحامية للموت جوعا مما اضطرها الى

الاستسلام . وهكذا سقطت الأبيض في أيدي رجال المهدى الذين نهبوا المدينة وغنموا فيمـــا غنموا ستة آلاف بندقية .

أثار ذلك انزعاج الخديو توفيق ، فأرسل قوة من عشرة آلاف جندي بقيادة ضابط بريطاني يدعى الكولونيل هكس . ولكن حملة هكس ظلت طيلة شهرين عاجزة عن احراز أى تقدم . ولم يلبث المهدى أن هاجمها بقوة من خمسين ألفـــا من رجاله الذين أصبحوا يعرفون باسم (الأنصار) . وفي خلال ربع ساعة قضى على العشرة آلاف من جنود الحكومة ، بما فيهم هكس قائد الحملة .

كان لهذه الهزيمة تأثير الطوفان الجائح . وكما قال أحد المؤرخين : فان السودان (بدا وكأن سدا قد تفجر فيه ، وتدفقت العقيدة المهدوية) . والواقع ان عدواها لم تلبث أن سرت الى مدينة (درة) عاصمة درافور ، وكان بها حامية سودانية وقد أسلم محافظها النمسوى رودلف كارل فون سلاتين استرضاء لرجاله المحاصرين في المدينة. ولكن المدينة اضطرت الى الاستسلام بعد شهر ، وأسر سلاتين الذى عفا عنه المهدى لاسلامه .

واخذ المهدى يدعم سيطرته على السودان الغربى ، وفى فبراير عام ١٨٨٤ هدد سواكن على البحر الأحمر . وفي خلال ذلك هزم قوة جديدة أرسلها الخــــديوى بقيادة الجنرال بيكر البريطاني . وأصبح الآن يسيطر على أرض تربو مساحتها على نصف مليون ميل مربع من منطقة تمتد حتى وسط السودان . واخذت قبائل الجنوب تنضم الى جانب الثورة تباعا .

فى هذه اللحظة بدأت لنــــدن ترى ان ما يجرى فى السودان أصبح يشكل تهديدا لمركزها فى مصر . وعند

نهاية عام ١٨٨٣ اقنعت الجنرال غوردون بالعـــودة الى الخرطوم وموافاتها بتقرير عن الموقف .

وحينما وصل غوردون الى الخرطوم فى فبراير عام ١٨٨٤ كانت قوات المهدى تحاصرها من كل جانب، باستثناء الطريق النهرى الذى كانت تحرسه بواخر مسلحة .

وبينما راح غوردون يعمل على تحصين موقفه الضعيف فى الخرطوم حاصر رجال المهدى مدينة بربر الواقعة على النيل على مسافة ثلاثمائة ميل شمال الخرطوم . وكالعادة استسلمت حاميتها بتأثير الجـــوع ، وهكذا انقطعت آخر صلة لغوردون مع مصر والشــــمال ، ولم تمض أسابيع قليلة حتى استسلمت أيضا حامية بحر الغزال ، وبهذا تلاشى آخر أمل فى الحصول على مساعدة من الجنوب .

وحاول غوردون المحاصر فى الخرطوم ارسال رسل الى القـــاهرة لكى تنجــــده بقوة تخفف الضغط والحصار المستحكمين من حوله ، ولكن الرسل وقعوا فى أيدى رجال المهدى الذى عرف الآن محنة غوردون وتعداد قواته .

عندئذ خرج المهدى من مقر قيادته قرب الأبيض على رأس مائتى ألف من رجاله فى طريقه الى الخرطوم . ولــكنه لم يبادر بالهجوم للتـــأثير على الروح المعنـــوية للحامية . وعندما جاءت المعركة بعد ثلاثة أشهر لم يكن الهدف الخرطوم بل أم درمان المواجهــــــة للعاصمة على الشاطىء الغربى للنيل . وباستســـلام أم درمان فى الخامس من يناير فقدت الخرطوم كل امل وهى محاصرة بعشرات الألوف من (الانصار) .

وفى فجر يوم ٢٦ من نفس الشهر أمر المهدى بالهجوم الشامل على الخرطوم . وقد هربت الحاميه التى استولى عليها الذعر والفزع . وسقط غوردون صريعا بالرماح .



واقترن ذلك بمذبحة رهيبة حتى قيل ان عشر سكان الخرطوم البالغ عددهم اربعين الفا لقوا مصرعهم .

ولكن المهدى لم يفسح له كثيرا في الأجل للاستمتاع بما نال من مكانة بلغت حد القداسة . فقد توفى بعد خمسة أشهر ، فى يونيو عام ١٨٨٥ بمدينة أم درمان .

وقد خلفه عبد الله التعايشى . وخلال الثلاث عشرة سنة التالية ، و برغم المجاعة والجدرى اللذين قضيا على أكثر من نصف السكان ، فقد تمكن من الاحتفاظ بالسودان ضد مصر وبريطانيا . بل انه زاد من أملاكه بالاستيلاء على كسلا وسنار فى الشرق ، والتوغل جنوبا فى اتجاه أوغندة. ولم يسقط قبل عام ١٨٩٩ عندما غزا الجنرال (اللورد فيما بعد) كتشنر ـ السودان بقوة بريطانية حديثة من عشرة آلاف من المشاة والمدفعية والفرسان (وكان منهم من اشتهروا فيما بعد ، مثل ونستون تشرشل) . لقد غلب الجيش المهــدى على امره ومزق شر ممزق عند أم درمان ، ورغم فرار عبد الله فقد اسر فى النهاية وقتل . وبعد ذلك حكمت بريطانيا ومصر السودان سويا ، مع حاميات بريطانية ومصرية وحاكم عام بريطانى يعين من قبل العاهل البريطانى وخديو مصر .

ومهما قيل فى الحركة المهدية ، فانه فى الوقت الذى كان العالم العربى لا يزال ينتظر يقظته النهائية من جديد ، استطاع ابن لأحد بنائى الزوارق من وادى النيل ، ان يبين للعالم كيف ان مجموعة من رجال القبائل المسلحين أولا بالعصى والهراوات ، والمزودين فى قلوبهم بالايمان والوحدة ، تهيأ لها أن تتحد وتحقق التفوق فى وجه أعظم قوة فى العالم .

الفصل الثاني والعشرون :

شيخ العثمانيين وشباب الأتراك

اقترن تولي السلطان عبد الحميد العرش في عام ١٨٧٦ بتدهور العلاقات مع أوروبا وزيادة الاعتداءات الأوروبية على الامبراطورية التركية . وما ان انقضى عام على توليه العرش حتى انهزم أمام روسيا بعد نضال طويل حول الأراضي العثمانية في القوقاز وأوكرانيا ، وبعد أربع سنوات ، في عام ١٨٨١ استولت فرنسا على تونس من الأتراك ، وفي السنة الثالثة كان خديوي مصر تابعا لبريطانيا يسيطر جيش الاحتلال على أراضيه ، رغم الاعتراف بسلطة الباب العالي اسما في مصر والسودان .

ولم يلبث عبد الحميد ان ادرك انه في حاجة الى حركة استعراضية اذا أراد أن يزيح القوى الأوروبية عن كاهله ويستعيد مكانة السلطان العثماني في العالم العربي . ان سياسة الباب العالي القديمة التي قامت حينا على اثارة النعرة الدينية بين المسلمين والنصارى لكي يبددوا قواهم في مقاتلة بعضهم بعض لم تعد تجدي نفعا أمام بعض قواهم العربية الجديدة المنادية بالوحدة بين جميع الطوائف .

وهكذا واجه السلطان حملات القوى الأوروبية ضده باعلانه عام ١٨٧٦ ادخال نظام دستوري للحكم واختيار

سياسي متحرر هو مدحت باشا لمنصب كبير النظـــار ، مستهدفا بذلك اقناع الاوروبيين بأن تركيا في عهده قلبت صفحة جديدة . ولكن لم تنقض ثلاثة أشهر حتى تجددت الحرب بين روسيا والامبراطورية العثمانية ، وأبطل العمل بالدستور الليبرالي الجديد .

وقدر لحركة أخرى قام بها عبد الحميد ان تكون اطول عمرا . فعمـــلا على استمالة العـــــرب المسلمين في الامبراطورية ، قرر احياء ما كان للخلافة من قوة وتأثير روحيين ، بعد ان ظل لقب الخليفة نحو اربعمائة عام مجرد لقب ليس له معنى حقيقي .

وهكذا أصبح عبد الحميد خليفة وسلطانا ورعا ، فحرم شرب الخمر في بلاطه ، وغدا الاتقياء من أصحابه الدائمين . وانشئت كليـات جـديدة لتدريس علوم الدين وتدريب رجال الوعظ والارشاد . وكسبا لود العرب عين شاميا سكرتيرا له ، كما عين غيره من العرب البارزين في وظائف مفخمة مجزية ، وأصدر قرارا بأن تكون قوة من حرسه الخاص عربية بحتـــة . وكان من أمهر مشروعاته انشاء سكة حديد الحجاز اختصارا لطريق الحجاج البرى من دمشق الى مكة ، وان كان لم يتجاوز (المدينة) ، وكان هدفه الحقيقي هو سرعة نقل القوات لمواجهة اية قلاقل في الحجاز أو جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث كان للأتراك حامية دائمة من أربع فرق .

ومن بواعث الأسف ان سيـاسة عبد الحميـد التى تراوحت بين الاستبداد والمداهنة اثبتت فعاليتها ، وانه في جميع أرجاء الولايات العــربية التابعة للسلطان هجعت حركة القومية العربية ، وان الحركة التى قدر لهـــا ان تطيح بعبد الحميد نشأت من دوافع تركية ، لا عربية .

فبعد ابتداء القرن العشرين بوقت قصير قامت في سالونيك جماعة من الاتراك الشبان اطلقوا على انفسهم اسم (لجنة الاتحاد والترقي) ، كرست نفسها لفرض واحد هو الغاء الحكم الاستبدادي واحياء الدستور الليبرالي الذي ظل موقوفا أكثر من ثلاثين عاما . وفي يوليو عام ١٩٠٨ ضربوا ضربتهم ، واعلن عن وقوع انقلاب عسكري حاول عبد الحميد الالتفـــاف من حوله بموافقته على اعادة الدستور والافراج عن المسجونين السياسيين . ولكن جمعية (الاتحاد والترقي) تغلبت في النهاية ، فعزلته وعينت مكانه أخاه محمد رشاد الذي أصبح اداة طيعة في أيديها .

والواقع ان هذه الثورة احدثت موجة عارمة من الفرح في كافة الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية . بيد أن هذه الفرحة لم تدم طويلا . ففي أول انتخابات اجريت في ظل هذا الدستور اكتشف العرب حقيقة (ليبرالية) نظام الحكم الجديد . فقد حـــدث تلاعب في الدوائر الانتخابية ادى الى اعطاء ١٥٠ مقعدا في البرلمان الجديد للمرشحين الاتراك ، و ٦٠ مقعدا فقط للعرب . وفي مجلس الشيوخ الذي يعين السلطان اعضاءه كانت النتيجة أسوأ بالنسبة الى العرب ، اذ لم يحصلوا الا على ٣ مقاعد من ٤٠ مقعدا . وهكذا ، وبعد أن استخدمت (لجنـــة الاتحاد والترقي) الدستور للحصول على نتيجة الانتخابات التي يريدونها ، شرعوا يفرضون على الولايات العربية نظاما للحكم أشد مركزية من نظام عبد الحميد .

زالت الأوهام عن الزعماء العرب بعد اكتشاف حقيقة رجل تركيا الحديثة ، وبدأت حركة القومية العربية تنشط من جديد ، وفيما بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١١ شكلت عدة

جمعيات سرية عربية ، بعضها يهدف الى فكرة الملكية الثنائية على نسق امبراطورية النمسا والمجر ويتمتع فيها القسم العربي بالاستقلال الداخلي ، وبعضها يطالب للعرب بحكم ذاتي كامل في كل الشئون باستثناء الشئون الخارجية والدفاع والمالية القومية وبعد موجة من المظاهرات العامة في الشام وفلسطين والعراق ، وبين اضطهاد جواسيس الأتراك لقادة هذه الحركات - اضطروا الى طلب الأمان في باريس لمواصلة نشاطهم .
وفي ابريل عام ١٩١٣ عقد في باريس مؤتمر عربي للتعبير عن مطالب العرب . وقد حاول الباب العالي وقف هذا النشاط ، ولكن عندما رفضت الحكومة الفرنسية أن تتعاون في هذا المسعى ، أرسل مبعوث للتباحث مع الثوار . وكانت النتيجة اتفاقية أقرتها الاستانة فيما بعد ، تقضي بأن تصبح العربية اللغة الرسمية .. في الولايات العربية بالامبراطورية وبجرى تدريسها في جميع المدارس ، وأن يكون للعرب تمثيل في وزارة السلطان ، ومزيد من الراى في الحكم الاقليمي . ولكن في اغسطس من نفس العام أصدر الباب العالي فرمانا كان في ظاهره المصادقة على اتفاق باريس ، وفي حقيقته نسخ أهم أحكامه وخاصة ما يتعلق باللغة العربية .

بدأ رجال تركيا الحديثة يستخدمون القمع بعد الخديعة ، فأخذوا يعتقلون بالجملة كل من يشتبهون فيهم من القوميين العرب . وكان من الضحايا الذين استهدفوا لذلك البكباشي عزيز علي المصري ، وكان ضابطا شابا في هيئة اركان الحرب التركية من أصل مصري تركي ، فقد قبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة ، كان لعزيز شعبية كبيرة وسجل عسكري ودبلوماسي ممتاز . وكانت له يد في مساعدة زعيم برقة السنوسي سيد احمد في

قتال الايطـــــاليين عند غزوهم ليبيا فى عام ١٩١١ واستيلائهم على البقية الباقية من ممتلكات العثمانيين فى شمال افريقية . وازاء ما تقــرر من ان هذا الوطنى العربى المشهور قـد ارتكب جريمة الخيانة وحكم عليه بالاعدام — غلت مراجل الغضب ضد تركيا ، وقامت المظاهرات فى القاهرة مسقط رأسه ، واقسم الضباط العرب فى الجيش التركى على الانتقام له اذا نفذ فيه حكم الاعدام . وعندما سرت الضجة الى الصحافة البريطانية قدم الســــفير البريطانى فى الآستانة احتجاجا للباب العالى ، مما ادى الى تخفيف الحكم الى الاشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما . ولكن الزعماء الوطنيين العـــرب واصلوا حملتهم الى ان الغى الحكم فى النهاية ، فعاد عزيز الى مصر واستقبل استقبال الأبطال ، وأعيد الى وضعه فى الجيش ، وأصبح بعد وقت مفتشا عاما للقوات المسلحة المصرية .

لقد ارتكب الباب العالى خطأ كبيرا . فان الجماهير العربية قد اثيرت لأول مرة . وكانت هذه نقطة اللاعودة فى بناء الثورة العربية . كان زعمـاء القوميين العـــرب يكتفون فى مطالبهم بالتأكيد على اللامركزية والاســتقلال الداخلى فى نطاق النظام العثمانى دون كلام عن الانفصال. ولكن حادث عزيز المصرى الذى جاء على قمة تنكر الباب العالى لاتفاق باريس ، ادى الى تصلب الرأى العام العربى ضد أى وفاق جديد . والآن وقد تحول الرأى العام العربى فى اتجاه الاستقلال التام ، ما لبث ان ظهر زعيم جديد كان مركزه هذه المرة مدينة مكة .

الفصل الثالث والعشرون :

الثورة العربية

كان امير مكة هو حسين بن على من بنى هاشم . وفى عهد السلطان عبد الحميد أجبر هو وأبناؤه الاربعة (على وعبد الله وفيصل وزيد) على الاقامة فى الآستانة ليكونوا تحت نظر السلطان . فلما جاء رجال تركيا الفتاة وانخدعوا بدماثته وهيأته الجذابة بدا لهم انه قد يستجيب الى حركتهم اذا عينوه فى منصب حكومى رفيع فى الولايات العربية . ولما كانت التقاليد تقضى بأن يكون امير مكة من بنى هاشم ، فقد عينوه فى هذا المنصب .

ولم يمض وقت حتى ادركت الجماعة غلطتها بهذا التعيين ، وذلك عندما اخذ حسين يؤكد سلطانه الشخصى على قبائل الحجاز خارج المدنة . وحدث فى بداية عام ١٩١٤ عندما اخذ الشعور القومى العربى يغلى بسبب محاكمة عزيز المصرى ، ان وجد امير مكة نفسه فى مركز استراتيجى ومزودا بالسلطة الروحية وتأييد القبائل ، مما يهيىء له أن يطرح النير التركى ويرفع راية دولة عربية مستقلة . وكان العنصر الوحيد الذى يفتقده هو المؤازرة المسلحة من جانب دولة عظمى ، وهو ما أخذ حسين يسعى الى التماسه عند البريطانيين الذين أتيح

له ان يعجب بأساليبهم الدبلوماسية النزيهة فى الظاهر أثناء اقامته الاجبارية الطويلة فى الآستانة . فأوفد اليهم ابنه الثانى عبد الله الذى كان نائبا فى البرلمان التركى وكان يمتاز بالدهاء والدبلوماسية . وفى فبراير عام ١٩١٤ توجه عبد الله لزيارة اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى القاهرة وحاكم مصر الفعلى . وقد عرض عبد الله فى حديثه الى تحفز قبائل الحجاز للثورة ضد الباب العالى ، وتساءل فى تحفظ عن موقف بريطانيا فى حالة اشتباك العرب مع سادتهم الأتراك . واذا كان كتشنر قد أجاب بأن بين بريطانيا وتركيا صداقة طويلة الأمد مما لا يسمح لها بالتدخل فى الشئون الداخلية لممتلكات السلطان ـ فان أفكاره لم تكن مطابقة لجوابه الرسمى . ذلك انه شهد خلال الثلاثين عاما السابقة تزايد سياسة ألمانيا فى الزحف نحو الشرق ، الذى بدأ بوصول بعثة عسكرية ألمانيا لتدريب جيش السلطان ، ثم زيارة ولهلم الثانى قيصر ألمانيا بعد خمسة عشر عاما الآستانة للحصول على امتياز لألمانيا لبناء السكة الحديدية بين تركيا وبغداد . وقد بدا لرجل مثل كتشنر ان فى امكان الألمان فضلا عن الأتراك استخدام سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز لمهاجمة مواصلات بريطانيا الامبراطورية فى الخليج العربى ، والبحر الاحمر وقطعها.

وكان هناك تهديد آخر للامبراطورية البريطانية من ازدياد الصداقة بين تركيا وألمانيا . فلو نشبت حرب بين بريطانيا وألمانيا كان الاحتمال قائما لدخول تركيا الحرب الى جانب ألمانيا واعلان (الجهاد) ضد (الكفرة) الذين يحتلون الأرض الاسلامية . ولا شك ان استجابة العرب لذلك سوف تعرض للخطر مركز بريطانيا فى مصر وعدن ، فضلا عن موقف حليفتها الفرنسية الجديدة فى

الجزائر وتونس . وكان كتشنر قد امضى فترة طويلة في مصر والسودان أثناء ثورة المهدى وبعدها بحيث لا يستهين باحتمال كهذا. وهكذا بدا له الآن ان ما يعرضه حسين أمير مكة يمكن أن يؤدى الى القضاء على هذا التهديد ، وان قيام تفاهم بين بريطانيا وأمير مكة كفيل بافساد أية خطط تركية والمانية . وهكذا بعث كتشنر برونالد ستورس المستشار الشرقى فى دار المعتمد البريطانى وقتذاك لرد الزيارة لعبد الله وابقاء باب الاتصال مفتوحا معه ومع والده .

لكن عبد الله ينتظر طويلا ، فعلى اثر نشوب الحرب بين بريطانيا والمانيا بعث كتشنر الذى اصبح وزير الحرب فى بريطانيا برسالة الى عبد الله يستفسر فيها عما اذا كان والده سينضم الى جانب الاتراك . أو البريطانيين اذا انضمت تركيا الى المانيا فى الحرب ضد بريطانيا . لقد كانت بريطانيا فى حرب حياة أو موت وفى حاجة الى محالفة العرب لها .

كانت هذه هي الفرحة التى طالما انتظرها حسين. ولكنه كان يريد ضمانا من بريطانيا بان العرب سوف يحصلون على الاستقلال اذا انضم اليها وانهزم الاتراك ، وان كان من رأى ابنه فيصل أن العرب يمكن أن ينالوا مكاسب أكبر اذا انضموا الى تركيا .

وظل الموقف مائعا بين الطرفين الى يوم ٣١ أكتوبر عندما دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا . فقد اكدت بريطانيا لحسين فى مذكرة بعث بها كتشنر بانها فى مقابل تأييد حسين لبريطانيا ضد الاتراك فانها ستضمن مركزه كأمير لمكة وتؤيد جهود العرب فى نيل حريتهم .

ورغم ذلك سلك حسين مسلك المراوغة وكسب

الوقت . فقد رد على بريطانيا بانه حاليا يتم جمع قواته فسوف يوجه ضربته الى الامبراطورية العثمانية .

ومن ناحية اخرى رد على رسائل انور باشا رئيس وزراء تركيا وجمال باشا حاكم الشام لحثه على الاشتراك في اعلان (الجهاد) ضد بريطانيا بانه لا يستطيع ان يفعل هذا علنا خوفا من حصار بريطانيا لساحل بلاده .

لكن الاتراك سرعان ما فطنوا الى مناورات حسين . وبحلول فبراير عام ١٩١٥ قرر الباب العالي ازاحته من الطريق بالعمل على اغتياله . ولكنه فطن الى هذه المؤامرة عن طريق جواسيسه . فاوفد ابنه فيصل الى الاستانة للاحتجاج ـ ظاهريا ـ على هذا الغـــدر . ولكنه كان يهدف في الحقيقة الى الاتصال بالزعماء العرب في الشام والعراق لمعرفة مدى استعدادهم في المشاركة اذا قاد الثورة ضد الاتراك .

وفي عودة فيصل الى مكة بعد اتمام مهمته لدى الباب العالي والعروج على دمشق ، جاء معه بمذكرة من الزعماء العرب بأنهم لا يمكن أن يلتزموا بثورة سافرة ضد الاتراك بدون ضمانات صريحة من بريطانيا لاستقلالهم ، وطالبوا في هذه المذكرة بأن تعترف بريطـــانيا باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين والعـــراق وشبه الجزيرة العربية ، باستثناء عدن ، وعقد معاهدة دفاعية مع الدولة العربية التي سوف تقوم في نطاق هذه الاراضي .

هكذا وجد حسين الحل الأمثل الذي كان ينشـــده بعد أن بدا له الآن انه في مركز يمكنه من تقديم شروطه الى بريطانيا متحدثا باسم (الشعب العربي) . فـكتب الى السير هنري مكماهون الذي خلف كتشنر في مصر يدعوه الى الموافقة على الشروط التي جاءت في مذكرة

دمشق ، واضاف التماسا بأن تؤيد بريطانيا « اعلان خلافة عربية للاسلام » ، عملا بما تفاهم عليه فى ذلك مع كتشنر من قبل .

لكن بريطانيا كانت أكثر مراوغة من حسين . اذ رد مكماهون برسالة لم تذكر شيئا فيها من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، وتحدثت عن شبه الجزيرة العربية بعبارات غامضة ، مبينة انه لا ينتظر منها وهى مشتبكة فى حرب أن تضع الحدود الدقيقة للاستقلال العربى .

وتبودلت بعد ذلك مكاتبات متعددة بين الطرفين اكـد فيها حسين أن العرب يطلبون الاستقلال للشام كلهـا ، ولكنه وافق اخيرا على تأجيل اتخاذ قرار بشأن الحدود الى ما بعد الحرب ، وعلى أن يعتمد على حسن نية بريطانيا .

كانت محصلة هذا كله بعيـــــدة جدا عن التعريفات الدقيقة لما جاء فى مذكرة دمشق . وعلى الرغم من انه ما من شىء كان يبرر خيانة بريطانيا وفرنسا فيمـا بعد للعرب باتفاقية سايكس ــ بيكو السرية وتصريح بلفور ، فقد كان من الخارق للمألوف أن يعتبر حسين هذه المكاتبات ضمانا كافيا يعتمد عليه فى بدء الثورة العربية ، وأن يكون بمثل هذه الدرجة من التصديق فى تعامله مع البريطانيين . ولكن يبدو انه فعل هذا لأنه كان يريد الثورة ، التى كانت تعتمد تماما على امدادات الأسلحة والذخيرة من بريطانيا .

وبينما اخذت الاستعدادات للحرب تجرى فى الحجاز ، تغيرت سياسة الاتراك فجأة وانحازت الى الشده ، حينما طلب جمال باشا حاكم الشـــــام من حسين ارسال ابنه فيصل الى دمشق كرهينة تضمن حسن سلوك العرب . فاستصوب حسين الامتثال بدلا من مواجهة مع الاتراك قد

تفسد خططه . ولكن في مايو عام ١٩١٦ جن جنون جمال بسبب فشل الجيوش التركية في الاستيلاء على مصر . وعجزه عن اقتناص المتآمرين الســوريين الرئيسيين . وعلى ذلك قبض على واحــد وعشرين من المواطنــين البارزين في دمشق وبيروت واعدموا شنقا في السادس من مايو ١٩١٦ .

ان هذه المحاولة الهمجية لقمع مزيد من المقاومة العربية كان له تأثير عكسي . فسرعان ما تحول حياد فيصل الى اتجاه عارم للقتال . وابهاما لجمال باشا برغبته في قيادة قوة من المتطوعين العرب في الجيش التركي ، سمح له بمغادرة دمشق ، واتجه من فوره للانضمام الى والده . وفي خلال ذلك كان قــد رتب مع حسين أن تبدأ الثورة العربية حال عودته الى الحجاز . ولم يرد حسين من ناحيته ان يتأخر اكثر من هذا القدر ، بعد أن علم من جمال ان قوة مشتركة من الالمان والأتراك قوامها ثلاثة آلاف وخمسمائة كانت في طريقهــا لتعزيز الحــاميات العثمانية في جنوب بلاد العرب .

وعند وصول فيصل الى (المدينة) وجد ان الالمان من افراد القوة ، لكونهم من غير المسلمين ، قد منعوا من سلوك الطريق المباشر عبر مكة واخذوا يتقدمون عن طريق ينبع على الساحل . وبزوال هذا الخطر ونجاة فيصل من قبضة جمال ، أصدر حسين الامر الى قبائل الحجاز بأن تضرب ، واعلن الاستقلال العربي . وفي العــاشر من شهر يونيو هوجمت الحــامية التركية في مكة بنيران البنادق ، ولقد ظلت المعركة مســتعرة مدى ثلاثة أسابيع ، كان الاتراك يردون خلالها بنيران المدفعية ، التي لم يكن لدى رجال حسين شيء منها ، ولكن عندما

ارسلت على عجل بطاريتان مصريتان من المدفعيــة من الجيش البريطاني في مصر ، وانهال القصف المدفعي على الاتراك ، ما لبثوا ان سلموا المدينة في التاسع من شهر يوليو . وبعد ذلك بأسبوع سقطت جدة في أيدي قوات حسين ، وتقدم عبد الله للاستيلاء على الطــائف حيث كانت الحامية التركية تصطاف في الجو الجبلي المبرد . وبحلول شـــهر سبتمبر ســقطت رابغ وقنفدة على الساحل ، كما سقطت ينبع بعد تطويق القوة الالمانية بها وتسليمها الى وحدة بحرية بريطانية كانت تساند الزحف العربي على امتداد ساحل البحر الاحمر .

وفي خلال ذلك ثارت ثائرة جمال باشا في الشام حتى أطلق حملة من الارهاب والاعتقال والتعذيب بل والاعدام لزعماء العرب البارزين لم يكن لها مثيل الا في العصور الوسطى . ولم توقف هذه العمليات الا بعد ان هدد فيصل بالانتقام من الضباط الأتراك الذين أسروا في مكة والطائف .

وعلى الرغم من ذلك فقد راى جمال باشا انه اذا لم يتمكن من القضاء على الوطنيين ، فبامكانه تجويع الشعب ذاته لاضعاف قواه . وكانت المجاعة قد بدأت في بعض أنحاء سوريا الكبرى لأن الجراد اتى على المحصول في الربيع السابق . فأمر بعدم شراء القمح في المنــــاطق المتعاطفة مع ثورة حسين حتى كان الناس يموتون بالمئات ثم بالألوف ثم بعشرات الالوف ، وحتى بلغ عدد الذين هلكوا جوعا في الممتلكات الواقعة تحت حكم جمال باشا نحو ثلاثمائة الف نسمة . وهكذا فعندما نادى حسين بثورة عربية عامة ، لم يكن السوريون في حالة تسمح لهم بالاستجابة .

ولم يكن التجويع هو العامل الوحيد الذى حال بين العرب خارج الحجاز وبين التعاون الصادق مع حسين . فان يحيى امام اليمن وابن الرشيد زعيم شمر قد تعاهدا على تأييد الاتراك . وكان السنوسى فى برقة وقبائل دارفور فى السودان اكثر انشغالا بمقاومة الاحتلال الايطالى والبريطانى منهم بالعمل على طرح نير الحكم العثمانى . وفى نجد كان ابن سعود ينتهج سياسة الجمود لاسباب داخلية ولحقده على حسين بسبب اطماعه فى ولاية الجزيرة العربية مما جعله مصمما على سحق مطامع هذا الهاشمى الطموح لاول فرصة . كما ان هذه المطامع ذاتها ابعدت عنه كثيرا من قبائل سوريا والاردن .

كل ذلك حد من قوى الثورة العربية فى أولى مراحلها الحاسمة واكد ظنون المتشككين فى القيادة العامة البريطانية فى القاهرة من ان حرب الامير حسين عملية هزيلة لا تستحق الا تأييدا رمزيا . كان فيصل وحده الذى كان مصمما على دحر الاتراك هو الذى ساعدت جهووده الدائبة على تدخل الشيخ عودة ابى طيى زعيم الحويطات وسيد الاردن من معان الى العقبة فى الوقت المناسب لمساندة التقدم العربى من الحجاز فى اتجاه الشمال . وجاءت نقطة التحول فى يوليو عام ١٩١٧ عندما تم الاستيلاء على العقبة بحركة التفاف بارعة قادها عودة ولورانس الذى جعلته مغامراته الفريدة كمستشار بريطانى لفيصل بطلا اسطوريا من ابطال الحرب العالمية الاولى . فقد تنبهت الآن هذه القيادة الى ان فى الامكان ضم العرب لتكوين قوة مقاتلة ذات قيمة حقيقية يعتمد عليها لشل حركة الاتراك شرقى نهر الاردن ، بينما يزحف الجنرال اللنبى شمالا عن طريق فلسطين .

وبفضل توصيات لورانس المتواصلة لدى اللنبي ، اصبح في الامكان الآن تزويد جيوش حسين بكل ما تحتاج اليه من مدفعية واموال للزحف الى سوريا . وبانتشار أخبار نجاحهم في الصحراء امكن ان ينضم اليهم المترددون من القبائل الشمالية .

عندئذ اصبح الزحف ســـباقا بين العرب وقوات الحلفاء للاستيلاء على دمشق . فقد ثبت لدى فيصل الآن ان البريطانيين والفرنسيين يدبرون لسلب العرب حريتهم حالما يتم طرد الاتراك ، فصمم على تأكيد حقوق والده بالاستيلاء على دمشق بجيشه هو . وقد كسب هذا السباق بعد أيام قلائل عندما دخل في أول أكتوبر عام ١٩١٨ عاصمة الأيوبيين الســـابقة وسط استقبال جنوني من الاهلين .

كان فيصل ورجاله يستحقون هذا الترحيب . فقد تهيأ لهم ان يقطعوا مســـافة الفي ميل وسط الصحارى المجـدبة ويشـــلوا حركة الجيش الرابع التركى بين (المدينة) ودمشق ، وان يقتلوا أو يأسروا أكثـــر من خمسة وثلاثين الفا من جنـــود الاتراك . كما ان حرب العصابات التي قاموا بها ضد مواصلات العدو بالسكة الحـــديدية مع دمشق ، حالت دون حصول الجيش التركى في فلسطين على تعزيز ضد زحف اللنبي من بيت المقدس .

وتتويجا لهذه الجهود استسلمت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بأربعة أسابيع ، في التاسع والعشرين من اكتوبر عام ١٩١٨ — اى بعد نحو أربعمـــائة عام منذ أن هزم السلطان سليم المخيف المماليك واضاف الشام ومصر الى املاكه .

القسم السابع

سراب الحرية

الفصل الرابع والعشرون :

الغدر بالعرب

لم تكن لحظة الانتصار عندما وصل العرب الى دمشق مدعاة لابتهاج فيصل التام . فان الشكوك التى كانت تخامره بأن بريطانيا وفرنسا تنتويان الدخول عندما يخرج الأتراك قد اكدتها ازاحة الستار عن اتفاق سايكس ــ بيكو واصدار الحكومة البريطانية لتصريح بلفور .

كان هذا الاتفاق وثيقة مخزية ، اذ كشف عن انه ما كاد مكماهون يختم مفاوضاته مع الأمير حسين حتى بدأت الحكومة البريطانية محادثات سرية مع الفرنسيين لتقسيم الهلال الخصيب الذى يشمل العراق وسوريا الكبرى بين بريطانيا وفرنسا . وكما أظهرت السنوات المئة الأخيرة ، فان الاوروبيين لم يتوانوا فى اغتنام ما يريدون من الدولة العثمانية المضمحلة . فقد انتزعت فرنسا الجزائر وتونس ومراكش . واستولت ايطاليا على ليبيا . واحتلت روسيا أجزاء من ارمينية . واستولت بريطانيا على مصر وقبرص وعدن ومشيخات الخليج العربى . وعندما دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا رأت الدول الكبرى المتحالفة مزيدا من الفرص للاستحواذ على الأراضى بعد ان مكنهما النصر من تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية . فرغبت فرنسا فى سوريا .

وارادت بريطانيا وحكومة الهند البريطانية الحصول على فلسطين والعراق والخليج (العربى) من الكويت الى مسقط .

وهكذا ، فبعد ان كتب مكماهون رسالته الأخيرة الى حسين بستة أسابيع ، بدأ السير مارك سايكس عن بريطانيا ومسيو جورج بيكو عن فرنسا فى وضع خطة تقسيم الامبراطورية العثمانية . فتقرر أن تنال روسيا المتحالفة الآن مع بريطانيا وفرنسا الآستانة والبوسفور ، بالاضافة الى شريحة كبيرة من شرق الأناضول ، وأن تنال فرنسا سوريا كلها ومنطقة الموصل بالعراق وجزء من جنوب الاناضول ، وكوفئت بريطانيا بباقى العراق . أما فلسطين التى كانت كل من بريطانيا وفرنسا تدعى مطالب فيها ، فتقرر أن توضع تحت ادارة دولية لم تحدد طبيعتها .

هكذا أخلت بريطانيا بوعدها لحسين . ومما زاد الطين بلة انه لم يبلغ بشىء محدد عما دبره سايكس وبيكو ، رغم أن هذين السيدين الفاضلين قد زاراه فى جدة بعد عام من التوقيع على الاتفاق الذى عقد بينهما .

ومهما يكن فان مخادعة كهذه لا يمكن أن تبقى طويلا على التستر والكتمان . فان البلاشفة الذين استولوا على السلطة فى روسيا عام ١٩١٧ اذاعوا شروط الاتفاق فى محاولة منهم لارباك حلفاء النظام القيصرى . وقد سارعت بريطانيا للتخلص من هذا المأزق فبعثت برسالة الى حسين من ا . ج بلفور وزير خارجية بريطانيا أكدت فيها بعد عبارات منمقة أن هناك تشوبها متعمدا لما تم التفاهم عليه بين الدول الكبرى ، وأن العرب يمكنهم الاطمئنان الى أن الاتفاق سوف تجرى عليه تعديلات

كبيرة لصالحهم الآن بعد ان قاتلوا بمثل هذه القوة للظفر بحريتهم ولمساعدة بريطانيا فى القضاء على العـــــدو المشترك .

ان توقيع اى وزير خارجية بريطانى على رسالة كاذبة كهذه لا يبعث على الدهشة بقدر ما يبعثه تصديق حسين لهذه التأكيدات دون ان يصر على الاطلاق على نص اتفاق سايكس — بيكو . ولو أنه فعل لرأى ان الوثيقة كلها كانت موجهة نحو تنمية خطط بريطانيا وفرنسا وروسيا على حساب استقلال العرب ، وفضلا عن ذلك فان بلفور كان يعرف ان فرنسا لن تقبل ابدا تعـديل الاتفـاق لصالح العرب . بل كان يعرف يقينا ان بريطانيا ليست لديها اية نية فى التخلى عن مطالبها فى العـراق . واما فيما يتعلق بفلسطين ، فقبل ثلاثة اشهر فقط من ذر الرماد فى عين حسين كان قد صـــدر فى نوفمبر ١٩١٧ تصريح بلفور المشهور الذى تعهدت فيه بريطانيا بتأييد اقامة (وطن قومى) لليهود فى فلسطين ، وان كان هدفهــــا الحقيقى هـو اقـامة ادارة اســـتعمارية وقـواعد عسكرية بريطانية فى ذلك البلد . فقـد كانت بريطانيا توقن أنه لو قام نظـــام دولى فى فلسطين تشاركها فيه فرنسا فلن يهيىء لها أمنا كاملا لقناة السويس ومصالح بريطانيا البحرية ، وان هذا الامر يتطلب سيطرة بريطانيا على فلسطين فضلا عن مصر .

وعندما جاء تصريح بلفور مواكبا للوقت الذى اذاع فيه البلاشفة اتفاق سايكس — بيكو ، فقد احدث فزعا فى العالم العربى . لقد انزعج حسين انزعاجا شديدا وطلب على الفور من حليفه البريطانى تفسيرا ، وبعد مخادعات شتى اعلنت وزارة الخارجية البريطانية فى يونيو ١٩١٨

ان الاراضي العربية التى حررها العرب بجهودهم ــ اى الحجاز وشرق الاردن ــ سوف يضمن لها (الاستقلال والسيادة الكاملان) ، وان المناطق التى تحررت بالمساعدة البريطانية ــ اى فلسطين والعراق ــ سوف تحكم (على اساس مبدأ موافقة المحكومين) ، وان اية اراض لا يزال يتعين تحريرها ــ اى الشام ــ (يجب ان تنال حريتها واستقلالها) . واخيرا ، فى نوفمبر ١٩١٨ ، بعد استسلام تركيا ، صدر تصريح انجليزى فرنسى مشترك فى فلسطين وسوريا والعراق يعلن ان سياسة الحكومتين فى الاراضي العربية المحررة هى اقامة نظم للحكم (تستمد سلطتها من حرية اهاليها فى ممارسة المبادرة ومن الاختيار) . وكان المقصود من هذا ان يطمئن العرب الى اتفاقية سايكس ــ بيكو هى الآن فى حكم الميتة ، وان الشام والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية سوف تكون حرة فى اختيار حكامها .

لكن العكس كان فى الواقع هو الصحيح ، وكانت نية الحكومتين البريطانية والفرنسية الحقيقية هى تجزئة فلسطين والعراق وسوريا ولبنان بينهما . وقد اصبح ذلك واضحا حالما اقام فيصل نفسه حاكما فى دمشق . اذ اقيمت حكومة مدنية وعسكرية فى القدس وبغداد . وتولى الفرنسيون الحكم فى لبنان وشمال شرقى سوريا . واعطى للعرب المناطق الخلفية وشرق الاردن من حلب الى العقبة . وقد احتج فيصل بأن هذه الترتيبات مخالفة تماما للتعهدات التى قطعت للعرب ، وعندما فشل فى احداث اى تغيير فى وقته توجه اولا الى باريس ثم الى لندن لعرض قضيته .

لقد استقبله الفرنسيون ببرود قائلين انهم

لا يستطيعون التعامل معه كممثل للعـــــرب . وقابل البريطانيون حججه بصمت يشـوبه الارتباك . واضطر ان يغادر لندن خاوى اليدين . وعندما وصل الى مؤتمر الصلح فى فرساى كانت صدمات جديدة تنتظره . فقد استيقظ والده فى النهاية على الحقيقة وعرف انه خدع ، وفى سورة غضبه رفض فى البـــداية أن تكون له اية معاملات اخرى مع الحلفـاء وحجب عن فيصل سلطته للتفاوض بالنيابة عن العرب ، واستمر الفرنسيون كذلك فى رفضهم الاعتراف بالأمير . ولم تتمكن الحـــكومة البريطانية الا بصعوبة من اقناع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا والأمير حسين بسحب اعتراضهما . بل ان الاخير لم يسمح لفيصل للسعى الى حل وسط ، وأصر على أن تنفذ بريطانيا عهودها كاملة .

ومع ذلك واصـل فيصل جهـوده وحيـدا فى خضم فرساى . ولم يؤيده سوى الوفد الأمريكى برئاسة وودرو ويلســـــون . ولم تكن امريكا فى ذلك الوقت فى مركز يجعل تأييدها على مائدة المفـــاوضات فعالا فى شئون الشرق الأوسط . وكانت بريطانيا تسعى وراء بترول الموصل وفلسطين . وكانت فرنسا مصممة على أن تنال كل ما يمكنها الحصول عليه فى الشام . واذا اريد اقناع كليمنصو بالتنازل عن الموصل والموافقة على قيام انتداب بريطانى فى فلسطين ، فلابد لبريطـــانيا من اطلاق يد فرنسا فى سوريا . وكان كل ما اســـتطاع فيصل أن يحققه هو اتفـــاق مع كليمنصو فى نوفمبر ١٩١٩ يؤكد سلطة العرب فى الارض الواقعة بين العقبة وحلب بما فى ذلك دمشق ، وتشكيل لجنة تحقيق متحـــالفة تزور الشرق الأوســط لاستشارة الاهالى المعنيين وتقــديم توصيات بشأن حكومتهم المســتقلة . وتقرر أن تكون

اللجنة من ممثلين عن بريطانيا وفرنسا وأمريكا . ولكن تنحت بريطانيا وفرنسا حتى لا تواجههما توصيات من مندوبيهما قد تتعارض مع سياسة كل منهما ، واصبح المحققون فريقا امريكيا برئاسة الدكتور هنرى كنج ومستر تشارلز كرين .

وبالرغم من ان لجنـــة كنج ـ كرين قامت بمهمتها وقدمت توصيات كانت بمثابة شعاع من حسن الادراك فى عالم سادته ظلمات الجشع والخداع ، فقد كان مصيره التجاهل لانه انكر مطامع المنتصرين .

وفى خلال ذلك كان فيصل قد عاد الى دمشق حيث وجد العرب يزدادون قلقا وتحفزا . فقد شكل الوطنيون (حزب الاستقلال العربى) الذى دعا الى مؤتمر قومى أصدر فى مارس ١٩٢٠ قرارا يطالب بالاستقلال لسوريا الـكبرى وأن يـكون فيصل ملكا عليها مع رفض تصريح بلفور واتفاق سايكس ـ بيكو ورفض الوصاية والمساعدة الفرنسية بأية صورة . واعقب ذلك اجتمـــاع للزعماء العراقيين أتخذ قرارا مماثلا بالنسبة للعراق مع اختيار عبد الله ملكا . وقد ردت فرنسا وبريطانيا باعلان بطلان هذه الاجراءات ودعتا الى عقد اجتماع للدول المنتصرة ، فى سان ريمو بايطاليـــــا لتقاسم الانتدابات على سوريا وفلسطين والعراق . وقد اعترف المؤتمر بدعوى بريطانيا فى فلسطين ، واضاف الموصل الى انتدابها على العراق بثمن كان السماح للفرنسيين بسوريا كلها بالاضافة الى لبنان .

هكذا خسر العرب ، وتحـــركت فرنسا فورا لدعم مكاسبها ، فارسلت الى فيصل انذارا نهائيا تطلب اليه التسليم للدولة المنتدبة ، ثم شفعوا هذا بالزحف الى

دمشق واحتلالها ، وامروا فيصلا بمغادرة سوريا فى الصباح التالى بأول قطار .

لقد غدرت بريطانيا وفرنسا الآن بكل وعودهما للعرب . لقد تنوسيت تلك الوعود تماما ، وأصبحت مجرد فصل خسيس فاضح فى (أرشيف) التاريخ الدبلوماسى .

لكن اذا كان الحلفاء قد آثروا نسيان عهودهم ، فان العرب لم ينسوها . فقد شبت موجة من الثورات بين قبائل الفرات فى العراق بعد أن عزل الفرنسيون فيصلا بهذا الأسلوب الخاطف . وكانت الخسائر فى الأرواح والأموال لقمع هذه الثورات من الجسامة بما اضطر الحكومة البريطانية الى اعادة النظر فى سياستها . فعقد فى القاهرة مؤتمر فى شهر مارس ١٩٢١ رأسه مستر ونستون تشرشل وزيرا للمستعمرات للبحث فى أفضل سبيل لاقرار السلام فى العراق . وقد اتخذ المؤتمر قرارا واحدا وفرض عليه قرارا آخر . كان القرار الأول هو دعوة فيصل للتقدم الى استفتاء شعبى لتنصيبه ملكا ، وسحب الجيش البريطانى والاعتماد على سلاح الطيران للدفاع عن البلاد وعن خطوط مواصلات بريطانيا مع الهند . أما القرار الثانى المفروض فكان الاعتراف بعبد الله أميرا على شرق الأردن . وكان عبد الله ووالده حسين قد اشتد بهما الغضب من تصرف الفرنسيين فى سوريا الى حد أنهما صمما على محاولة استرداد البلد بالقوة . وفى سبيل هذا ارسل عبد الله مع جيش من ألفى رجل اتجه الى دمشق عبر شرق الأردن عندما اعترضه ضابط من ادارة فلسطين ورحب به ، وهناك استطاعوا اقناعه بالعدول عن خططه لاسترداد سوريا بمثل هذه القوة الصغيرة ، فاعلن نفسه حاكما على

شرق الاردن بينما كان مؤتمر القاهرة منعقدا . وعندئذ قرر تشرشل ومستشاروه قبـــــــول الأمر الواقع ، والاعتراف بعبـــد الله أميرا على شرق الاردن فى ظل الانتداب البريطانى .

هكذا قدمت بريطانيا بعض العوض لاثنين من أبناء الأمير حسين . أما هو فلم يغفر لبريطانيا نكثها بوعودها . ورفض حتى دعوتها اليه بعقد معاهدة تحالف . وكان عنيفا فى تنديده بفيصل لتساهله وقبوله للحلول الوسط . وفى غمرة غضبه حاول بغباء أن يؤكد ســـلطة لم يكن يملكها . فقد استغل سقوط الخلافة العثمانية ونادى بنفسه خليفة للاسلام .

وبهذه الخطوة لم يستفز فقط غضب جاره المعادى له وهو ابن سعود الذى كان ينقم عليه مجاراته للحلفاء (الكفار) ، بل انه ذهب خطوة أبعد بمحالفة ابن الرشيد العدو التقليدى لابن سعود . كما ساعد فى تمويل ثورة قبائل الفرات ضد الاحتلال البريطانى .

وهكذا كان الأمير حسين قد نجح بحلول عام ١٩٢٢ فى مجافاة ابنه وجيرانه وأخيرا الحكومة البريطانية التى كانت وحدها قادرة على حمايته ضد تهديدات الوهابيين .

ولم يلبث أن اطبقت عليه هذه النتائج عندما زحف رجال ابن سعود الوهابيون على الحجاز فى اغسطس عام ١٩٢٤ . وعندما احتلوا الطائف ونشروا الذعر فى كل انحاء الحجاز بأن جميع سكان البلدة قد ذبحوا ، اتجه حسين أخيرا الى بريطانيا يطلب المساعدة . بيد ان الحكومة البريطانية اختــــــارت الآن أن تعتبر الصراع كمسالة قبلية لا تعنيها .

واخيرا تنازل حسين لصالح ابنه الاكبر على ، الذى حال اعتلال صحته دون قيــامه بدور نشط فى الثورة العربية . كان الرجل العجوز يؤمل أن يستطيع بالتضحية بنفسه وقف المزيد من سفك الدماء ويحمل ابن سعود على التفاوض من أجل التســـوية . ولكن الوهابيين واصلوا زحفهم بلا ترفق ، فاستولوا على مكة فى أكتوبر عام ١٩٢٤ ، وبعد حصـــار طويل ظفروا بآخر معقل للهاشميين وهو جده فى ديسمبر ١٩٢٥ . وقد سلم (على) البلاد لابن سعود وذهب ليعيش فى المنفى فى احدى ضياع أخيه فيصل فى العراق . وقصــد حسين الى قبرص حيث قلده وســـام (فارس الصليب الأكبر) حاكمها رونالد ستورس ، ذلك الرجل الذى كان حسين قد تفاوض معه بشأن الخطوات الأولى وتحالفه الانكد مع بريطانيا ، وبا له من عوض زهيد عن عرشه وعن الحرية والاستقلال اللذين خال ذات مرة انه ظفر بهما للعرب ! .

الفصل الخامس والعشرون :

إبن سعود
سياسي الصحراء

يمكن ولا شك ان يعد الرجل الذى قضى على حسين امير مكة فى النهاية ـ وهو عبد العزيز بن سعود ـ واحدا من آخر الأمراء الاقطاعيين العظام فى شبه الجزيرة العربية . فقد قدر لهذا الأمير الا يفتح الحجاز فحسب ، بل وأن يكون كذلك مبعث الهام وتوجيه لثورة وعملية احياء رائعتين على مدار التاريخ .

بدأ ابن سعود حياته بين قوم خلفتهم الحضارة وراءها ، وكانت الأملاك التى ورثها عن أسلافه ارضا مباحة تقع بين شمال بلاد العرب وجنوبها ، حيث كان الصراع من أجل البقاء ضد عناصر الطبيعة من القسوة بحيث تركها الغزاة الأجانب دون أن يمسوها باحتلال . كانت اول جيوش الاسلام بقيادة خالد بن الوليد قد اجتازتها لارغام عمان وحضرموت واليمن على الاستسلام، وأجتازها القرامطة لكى ينهبوا مكة . وكانت قفار نجد تعود بعد كل عبور الى خوائها المطبق . وكان البدو الرحل السريعو الحركة هم وحدهم الذين استطاعوا الوجود المحدود فى فيافيها الموحشة القاتلة . ولكن ابن سعود استطاع رغم أصوله البدائية ان يشكل أول دولة عصرية من القبائل الرحل وأن يصبح مع الزمن قوة يحسب حسابها فى يقظة بلاد العرب من جديد .

ولد ابن سعود فى نوفمبر عام ١٨٨٠ من نسل محمد بن سعود وسميه عبد العـــزيز بن سعود اللذين ناصرا عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابى الشـديد التمسك بالدين والذى اطلق اسمه على رجال القبائل المحاربين الاشداء الذين حكمهم البيت السعودى . ولقد امضى بن سعود فترة صباه مع ابيه الأمير عبد الرحمن فى الكويت لاجئين اذ كان السعوديون واتباعهم الوهابيون قد طردوا من الحجاز على أيدى جيوش محمد على المصرية فى عام ١٨١٨ ، واستولت قبيلة شمر الكبيرة بزعامة محمد بن الرشيد أمير الحائل الـكائنة فى شمال شبه الجـزيرة العربية على موطن السعوديين فى نجد ثم فى الرياض .

وظل ابن سعود وهو يتقـدم فى مدارج الشباب تحت حماية شيخ الكويت تستبد به رغبة مضطرمة فى الثار لما لحق بالأسرة من هزائم وطرد ، واسترداد ممتلكاتهم فى نجد . وقد استطاع فى فبراير عام ١٩٠٢ بمساعدة شيخ الكويت تجهيز قوة تضم مائتين من راكبى الابل مباغته الرشيديين فى الرياض وهزيمتهم والاستيلاء عليها .

وبعد أن كسب ابن سعود هذه الجولة الاولى نادى به أبوه أميرا على نجد واماما للوهابيين . وبانضمام الافواج الكبيرة من المؤيدين اليه ، تهيأ له تطهير الجزء الاكبر من نجد من اتباع ابن الرشيد . وفى ابريل عام ١٩٠٦ أمكنه فى هجوم مفـاجىء على معسكر الرشيديين قتل ابن الرشيد ذاته ، واستسلم اتباعه للوهابيين .

اصبح ابن سعود الآن المسيطر على نجد بأكملها . وفى مستهل عام ١٩١٤ خاض معركة مع قبـائل الحسا على الخليج العـــــربى وكانت تناوشه بالهجمات المتوالية بتحريض من الاتراك ، وقد استطاع مع قوة من ستمائة

وهابى مباغتة الحامية التركية فى عاصمة الحسا ، وتم توطيد الهدوء بين القبائل ، وتهيأ لابن سعود ان يسيطر على ساحل الخليج العربى من الكويت الى البحرين . بل ان الباب العالى ، تجاوز الآن عن هـذا الجزء من شبه الجزيرة العربية ، ولم يعد ابن سعود يتعرض لمضايقات من جانب الأتراك .

بيد ان نجاح ابن سعود على هذه الصورة ما لبث ان اثار اهتمام قوة عالمية أخرى هي بريطانيا العظمى ، التى كانت سياستها حتى الآن قائمة على مد مجال نفوذها حتى الخليج العربى لمواجهة السياسة الالمانية الزاحفة نحو الشرق ، وبعـد امتـــداد الأرض الســـعودية حتى شواطىء الخليج العربى حـول البحرين والتحالف مع الكويت ، فان الأمير ســـعود يمكن ان يكون صديقا نافعا او عدوا متعبا . وعندما نشبت الحرب العـــالمية الاولى وأصبحت تركيا العدو الحقيقى ، سعت بريطانيا الى عقد معاهدة تحالف مع ابن ســـعود للحصول على مساعدته ضد الأتراك . ولكن الأمير الحذر لم يقبل اى تورط ، وكل ما وافق عليه هو التزام الحيـاد مقابل اعتراف بريطانيا به حاكما على نجد والحسا مع الدفاع عنه ضد أى هجوم تركى ، وتزويده بالبنادق والمال .

ولم يلبث ابن سعود بعد انتهاء الحرب وزوال التهديد التركى أن استأنف حروبه الخاصة ، فاستولى فى الجنوب على عسير الواقعة بين الحجاز واليمن . وفى عام ١٩٢١ استولى على الحـــائل عاصمة الرشيديين ووضع نهاية لهم . وفى السنة التالية اسـتولى على الجوف ووادى سرحان وهى معاقل قبائل نورى شعلان أحد امراء بلاد العرب العظام الأربعة . بل انه حاول غزو شرق الأردن ،

لولا ان هزمه السلاح الجوى البريطانى .

وهكذا ما ان يحل عام ١٩٢٢ حتى كان ابن سعود قد وطد لنفسه شهرة جاوزت حدود نجد . ولكن موارده لم تزد بازدياد مكانته وفتوحه ، فالى جانب اعانة من بريطانيا قدرها ستون الف جنيه ، لم تكن ايراداته السنوية تتجاوز مئة وخمسين الف جنيه . وكان حتما وهو يدير النظر حواليه بحثا عن فتح جديد ليزيد ماليته الضئيلة أن يرنو ببصره الى الحجاز لكى تفيد من موارد الحج بعد انتهاء الحرب وفتح الطريق الى مكة من جديد .

وقد جاءت الذريعـــة التى كان ينشدها ابن سعود للاستيلاء على الحجاز عندما نادى حسين امير مكة بنفسه خليفـــة فى فبراير عام ١٩٢٤ . فهجم . وما ان جاء سبتمبر حتى سقطت الطـــائف . وفى السنة التالية سقطت (المدينة) وجدة . وفى ٨ يناير نودى بابن سعود ملكا على الحجاز وسلطانا لنجد . وبعد ست سنوات ــ فى سبتمبر ١٩٣٢ ــ اصبح اتحاد نجد والحجاز والحسا المملكة العربية السعودية ، يحكمها ابن سـعود حكما وراثيا .

وفى حين ان فتح الحجاز وضمان ايرادات الحج قد حل بعض المشكلات ، فانه أوجد أيضا مشكلات أخرى بعد أن أصبح السعوديون على اتصال وثيق ، بل وعلى خلاف مع الدول الاسلامية الأخرى ومع القوى الأوروبية التى تشرف على مستعمرات مجاورة للسعودية . ومن أجل هذا دعا ابن سعود الى مؤتمر من الدول الاسلامية فى يونيو ١٩٢٦ لمناقشة الجـــوانب الاسلامية فى ادارة الحجاز . وكان المؤتمر ناجحا من حيث انه مكنه بهـذا الاحتكاك من العمل تدريجيـا على تعديل بعض المفاهيم

المتشددة فى المذهب الوهابى ، واقناع أهل نجد بقبول بعض المستحدثات العلمية الضرورية للحيـاة والادارة الحكومية كالتليفونات والسـيارات والراديو ، وكان المتزمتون يعـدونها مخترعات الشيطان . ورغم ذلك فقد اخفق ابن سعود فى ثنى مستشاريه عن اثارة خلاف مع مصر أدى الى قطيعة بين البلدين مدى عشر سنوات ، وكان السبب هو استيلاء الوهابيين على كسوة الكعبة التى اعتادت مصر ارسالهـا الى مكة فى مواسم الحج باعتبارها بالغة الزخرف .

ولكن علاقاته مع بريطانيا استمرت فى الازدهار . فقد ارتاحت الحكومة البريطـانية فى قرارة نفسها لان ابن سعود قد خلصها باستيلائه على الحجاز من الامير حسين الذى كان وجوده فى الحكم يذكر الناس بخيانتها وغدرها بالعرب . وهكذا بادرت الى الاعتراف بابن سعود ملكا على الحجاز فى اتفاقية جدة التى عقدت فى مايو ١٩٢٧ . بل انها لم تشأ احراجه وامسكت عن ان تطلب منه فى هذه الاتفاقية تأييد تصريح بلفور او الانتداب البريطانى على فلسطين .

ومن هذه البداية فى الاتصال الدولى مضى ابن سعود بعقد المعـاهدات وبتبادل التمثيل السياسى مع فرنسا وروسيا وهولندا وأيطاليا وتركيا وايران ، ولكنه حرص على ابقاء كل البعثات الأجنبية فى جدة البعيدة بقـــدر ثمانمائة ميل عن عاصمته فى الرياض ، اعتقادا منه بأن الدبلوماسية والحكم يجب ممارستهما فى اماكن مغلقـة تماما ، ايثارا للسرية والتكتم ، وسترا للقصور فى اداته الادارية .

وفى عام ١٩٣٠ واجهت بلاده الافلاس نتيجة للكساد

الاقتصادى العالمى الذى تمثل فى حدوث نقص خطير فى عدد الحجاج المسلمين الذين يمكنهم القيام بالرحلة الى مكة . لقد خوت الخزانة من المال ، واعلنت الحكومة وقف سداد الدين الأهلى ومرتبات الموظفين ، وما كان يمكن انقاذ البلاد الا بمعجزة . ومع ذلك فقد جاءت هذه المعجزة فى خلال عام .

فقد استضاف ابن سعود دبلوماسيا امريكيا كبيرا واكرم وفادته حتى أتحفه بجوادين عربيين أصيلين . وردا من الضيف الأمريكى على هذه الحفاوة ارسل اليه على نفقته الخاصة مهندس تعدين للقيام ببحث عن الموارد المعدنية المحتملة فى مملكة ابن سعود .

كانت النتيجة اكتشاف البترول فى الشرق ، وكمية محدودة من الذهب فى الغرب . وسرعان ما تقدمت شركات البترول العالمية تطلب امتياز الحفر فى الظهران القريبة من ساحل الحسا . وفى عام ١٩٣٣ حصلت شركة ستاندارد أويل اف كاليفورنيا على امتياز مقابل خمسين الف جنيه . وبعد ست سنوات تم انتاج البترول بكميات تجارية . وفى عام ١٩٥١ كانت الخزانة السعودية تحصل على ايراد يومى يجاوز ما كانت تناله فى سنة كاملة فى الوقت الذى تمت فيه زيارة الضيف الأمريكى بمحض الصدفة ، وقد ادت هذه الثروة الطائلة الى انشاء خط حديدى تكلف ثلاثين مليون دولار ، وميناءين ، وعدة قصور جديدة ومحطة للاذاعة ، وطرق رئيسية جديدة ، ومحطة لتوليد الكهرباء فى اربع مدن ، وانابيب مياه عذبة لتزويد جدة ، وخط طيران ، واعادة فتح مناجم الذهب (مناجم الملك سليمان) القريبة من (المدينة) . ونظرا لأن مثل هذا التطور كان يتطلب مهارات

ميسورة فى العربية السعودية ، فقد فتح الباب على مصراعيه الان ، وتقـاطر الأطباء والمدرسون والفنيون والاداريون من مصر وسوريا ولبنان وفلسطين الى الدولة التى تشهد هذا الازدهار الجديد .

ولقـد حرص ابن سعود طوال الصراع بين بريطانيا والعرب واليهود فى فلسطين ، وبين فرنسا والعرب فى سوريا ولبنان ، على التزام الحياد الدقيق . قنع فى صمت بقبول الانتداب البريطانى على فلسطين ، لا لانه كان يميل اليه ، بل لأنه لم يكن يؤثر على حدوده . بل ان ابن سعود لم يتحرك حتى عندما أعلن الصهيونيون جهارا ان هدفهم هو دولة قومية يهودية فى فلسطين . وعندما تزايدت هجرة اليهود من أوروبا ندر ان رفع ملك السعوديين اصبعا لمؤازرة اخوانه العرب فى نضالهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم . وبعد ان ظهرت دولة اسرائيل فى عام ١٩٤٨ . وحاول جيرانها العرب سحقها فى المهد ، لم يقدم سوى تأييد رمزى لجهودهم ، معتبرا حملتهم قد أسىء توقيتها ولم يتخذ لهـا ما يلزم من الاستعداد والتنسيق .

كان ابن سعود خـلال حكمه الطويل يشعر بالنفور والـكراهية للتورط الخـارجى ، فلم يسافر قط خارج الشرق الأوسط ، وقلما غادر بلاده ذاتها . ومرة زار القاهرة زيارة رسمية بعـد زوال القطيعة التى حدثت بسبب كسوة الكعبة ، حيث استقبل بحفاوة كبرى ، ولـكنه واصل بعدها سياسة الاعتزال . وكان ينظر بعين الريبة الى جيرانه ولا سيما الهـاشميين ــ فيصل فى العراق وعبد الله فى شرق الأردن . وعلى الرغم من ان البريطانيين كانوا يتملقونه فى كل معاملاتهم ، الا انه كان

دائم الشك فى نواياهم ، خصوصا لانهم ابدوا أولا حسينا فى الحجاز ثم عبد الله فى شرق الاردن ، وقاموا بالاعتداء على الكويت والبحرين وغيرهمـــا من مشيخات الخليج العربى على امتداد حدوده . ومن ثم كان الحياد وعدم التورط هما فى نظـــره السياسة الوحيدة المأمونة العواقب .

ومهما يكن فان ابن ســـعود الذى حكم مملكته مدى نصف قرن ، قد استطاع أن ينشىء دولة حديثة وموحدة من قبائل متنافسة متخلفة من العصور الوسطى ، وان يقودها نحو القرن العشرين بعزم لا ينثنى .

الفصل السادس والعشرون :

المأساة في فلسطين

ان الكلام ليقصر عن وصف ملحمة فلسطين فى ربع القرن الممتد بين قيام الانتداب البريطانى بعد الحرب العالمية الاولى وخلق دولة اسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية ، بل عن وصف موقف سلطة الانتداب البريطانية أو الحركة الصهيونية تجاه عرب فلسطين ، أو عن رفض العرب المتواصل لأى اتفاق أو تسوية تتحدى حقوقهم أو تقصر عن الوفاء التام بالتعهدات التى قطعتها بريطانيا خلال الحرب بشأن حرية العرب . اما أنهم كانوا ضحايا الغدر والظلم فشيء لا يمكن انكاره . ولكن نظرا لانهم لم يستطيعوا نسيان هذا الغدر بهم ، كما ان الصهاينة لم يتخلوا عن اطماعهم ، فقد منيت فلسطين بنكبة لا شك فيها .

والواقع انه لم يكد يصدر تصريح بلفور حتى نشط الصهيونيون للعمل . ففى مارس ١٩١٨ وصلت الى فلسطين لجنة ثلاثية من الدكتور وايزمان ومستر روتشيلد ومستر سبيف لتكون — فى الظاهر حلقة اتصال بين اليهود والحكومة العسكرية البريطانية . فى هذه المرحلة كان سكان فلسطين اليهود حوالى ٥٥ الفا ، أى اقل من ٨ فى المائة من سكانها البالغ عددهم سبعمائة

الف . أما النسبة الباقية وهي ۹۲ في المائة فكانوا من العرب ، اربعة أخماسهم مسلمون والباقون مسيحيون . وازاء هذا التفوق العددي ، واستنامة لبعض قادة العرب مثل الأمير حسين الى الوعود البريطانية بأن الهجرة اليهودية لن تعتدى على حريتهم السياسية والاقتصادية - فان عرب فلسطين لم يبدوا أي اعتراض على هذا الوجود الصهيوني بينهم . بل ان الأمير فيصل وقع اتفاقا مع الدكتور وايزمان في يناير عام ١٩١٩ - اعرابا عن حسن نيته - أعلن فيه أنه بشرط حماية حقوق الفلاحين والمستاجرين العرب « فسوف تتخذ جميع الاجراءات اللازمة لتشجيع وتنشيط الهجرة اليهودية الى فلسطين على نطاق واسع وباسرع ما يمكن لتوطين المهاجرين اليهود فيها »

ثم جاء مؤتمر الصلح ومعه تحطيم سياسة فيصل في سوريا . ولكن ، على الرغم من انه قد اتضح الآن ان العرب في سوريا سوف يباعون الى الفرنسيين ، فلم يقم وفد عربي بزيارة لندن لاستطلاع خطط الحكومة البريطانية بشأن فلسطين الا في عام ١٩٢٠ . وقد اقترن هذا بقيام السلطات البريطانية في القدس بطرد الموظفين العرب وأحلال اليهود محلهم . ثم أعلن مؤتمر صهيوني في لاهاى ان هدف الصهيونية ليس انشاء (وطن قومي) لليهود ، ولكن انشاء (دولة يهودية) . وفوق هذا كله وافقت بريطانيا وفرنسا في سان ريمو على وضع فلسطين تحت انتداب بريطاني يحمل معه الالتزام بتنفيذ وعد بلفور . وعندما ازيح الستار عن شروط الانتداب أظهرت اغفالا تاما للأغلبية العربية في فلسطين والبالغة ۹۲ في المائة ، بينما اشارت فيما لا يقل عن اربع عشرة مرة الى اليهود أو المؤسسة اليهودية . بل ان بريطانيا

وضعت دستوراً أعطى سلطة مطلقة للمندوب السامى البريطانى للاعتراض على اى اجراء يقرره المجلس التشريعى . وعندما عرف هذا قاطع العرب انتخابات عام ١٩٢٢ ، واصبح ما يدعى بالمجلس التشريعى فى خبر كان . وهكذا تركت سلطة غير محدودة فى أيدى سلطات الانتداب مع مجلس استشارى من البريطانيين مئة فى المئة ، كانت وظيفته تأييد كل قراراته .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذه الضربات ، فقد ظل السكان العرب منحازين الى المسالمة نسبيا خلال السنوات الخمس الاولى للانتداب البريطانى .

ومن المفارقات الغريبة ان بريطانيا اختارت يهوديا ليكون اول مندوب سام فى فلسطين هو السير هربرت صمويل . وعلى الرغم من انه كان نصيراً متحمسا للصهيونية فانه لم يظهر اى تحيز للصهاينة والتزم جانب الانصاف فى معاملاته مع العرب . وقد ساعد عدم تحيزه شخصيات عربية مثل راغب النشاشيبى عمدة القدس الذى كان وطنيا معتدلا على السيطرة على الموقف ومنع المتطرفين من أن يفلت زمامهم خلال تلك الايام المبكرة .

ولكن اختيار صمويل للحاج أمين الحسينى مفتيا للقدس لم يكن متمشيا مع هذه السياسة ، وقد أدى فيما بعد الى ان يسحب المتطرفون البساط من تحت أقدام المعتدلين .

كانت هناك منافسات مريرة بين اسرتى النشاشيبى والمفتى . وقد ادت زعامة المفتى على الجماعة الاسلامية الى وضعه فى موقف اقوى من عمدة القدس . وهكذا فعندما تزايدت ضغوط الهجرة اليهودية الى حد

لا يستطيع العرب احتماله ، فقد اتجهوا الى الزعيم الذى كان ينادى دائما باستخدام العنف ، وانصرفوا عن الرجل الذى كان يؤثر سياسة التفاهم والوفاق .

وبحلول عام ١٩٢٨ كان الموقف قد تدهور بسرعة . فعلى الرغم من ان العراق نال استقلاله ، وظفر شرق الأردن بالحكم الذاتى داخليا ، كانت فلسطين لا تزال تعامل معاملة المستعمرات المتخلفة . وعندما طلب العرب ، بعد عشر سنوات من انتهاء العرب ، بأن تسلم بريطانيا لفلسطين بالحق فى الحكم الذاتى الديمقراطى طبقا لتصريحات الحلفاء فى يونيو ونوفمبر ١٩١٨ ، قوبلوا بالرفض على الفور .

وكان للعرب مصدر قلق آخر هو بيع أراضيهم . فقد كانت نسبة كبيرة من الأرض فى فلسطين مملوكة لملاك اراض لبنانيين ، ما لبث الكثيرون منهم ان باعوها للمشترين اليهود ، وهكذا لم تصبح ملكية العرب للأرض مهددة فقط ، ولكن كان المستأجرون وعمال المزارع العرب يطردون طردا لاخلاء مكانهم للمستوطنين اليهود . بل انه فى بعض المناطق ازيلت قرى باكملها لبناء مستعمرات يهودية مكانها .

وعندما تزايدت طوابير العرب المطرودين من ديارهم واعمالهم اقتربت المشاعر من درجة الغليان . ثم ان سياسة التحيز الصارخ التى انزلقت اليها بريطانيا برفض مطلب العرب فى الحكم الذاتى والسماح فى نفس الوقت للوكالة اليهودية فى فلسطين بأن تتطور الى شبه حكومة يهودية فى دور التكوين ، قد جعلت العرب يشعرون بأن هذه التفرقة الباغية جاوزت كل حد ، ومن ثم دعا المفتى اتباعه الى الاضراب . وفى اغسطس ١٩٣٠

اجتاحت القدس اضطرابات خطيرة ، وامتدت بها حبرون وصفد فى الجليل الشمالى .

لجأت الحكومة البريطانية لتحويل غضب العرب الى ارسال لجنة للتحقيق فى مظالمهم . وقدمت اللجنة بعض توصيات مقبولة تقضى بتشديد الرقابة على الهجرة اليهودية . فمنذ عام ١٩٢٠ استوطن مئة الف مهاجر يهودى فلسطين . وفيما يتعلق بحماية المستاجرين والعمال العرب قبلت الحكومة البريطانية النتائج التى تقدمت بها اللجنة . ولكن الصهاينة أثاروا عاصفة من الاحتجاج العنيف حتى اضطر مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية الى الكتابة للدكتور وايزمان يطمئنه بأن حكومته لم تكن تعنى حقا ما قالته .

وفى عام ١٩٣١ كانت نسبة اليهود من السكان قد تضاعفت حتى وصلت الى ٧١ فى المائة . وبلغ عدد المستوطنين اليهود مئة وسبعين الفا . ولقد تمادت الوكالة اليهودية بعد ان تزايدت قوتها الى حد انه اذا حاولت سلطة الانتداب أن يكون لها سيطرة فى مسائل الهجرة والاستيطان تعالى صراخ الوكالة ووجد صراخها صداه فى صحافة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وروسيا السوفييتية ، وكثيرا ما تراجعت السلطات البريطانية وسمحت للصهاينة بالتصرف كما يشتهون خوفا من اتهامها بمعاداة السامية .

وبحلول عام ١٩٣٣ ووصول هتلر الى الحكم فى المانيا تضاعف معدل الهجرة اليهودية الى ثلاثة امثاله ، اى من عشرة آلاف الى ثلاثين الفا فى السنة ، ثم ارتفع فى السنة التالية الى ٤٣ الفا ، وفى عام ١٩٥٣ وصل الى رقم قياسى هو ٦٢ الفا . وبعد أن تضخمت نسبة اليهود

الى مجموع السكان على هذه الصورة حتى بلغت ٣٠ فى المائة ، بدأت الدولة المنتدبة تدرك أنه لابد من عمل شيء لحماية السكان العرب . فاعلنت الحكومة البريطانية عن نيتها في انشاء مجلس تشريعي مزود بسلطات حقيقية على اساس التمثيل النسبي . ومع ان عرب فلسطين قابلوا هذا الاقتراح بالترحيب ، الا أنه قوبل بالرفض من جانب المفتي وأقلية من المتطرفين . كما استنكره الصهاينة اذ رأوا فيه تهديدا لهدفهم في انشاء دولة يهودية . وبمرور الوقت وضع الاقتراح على الرف ، واعتبر العرب انهم خدعوا مرة أخرى .

كانت هذه هي فرصة الحاج امين الحسيني الكبرى . وقد أمسك بها بكلتا يديه . ومنذ ذلك الحين فقد النشاشيبي كل سيطرة ، وأصبح الاعتدال مرادفا للخيانة ، وتولى المفتي زمام الموقف . ففي عام ١٩٣٦ أسست منظمة تدعى اللجنة العربية العليا لتوجيه ثورة عربية سافرة ، وانتخب المفتي رئيسا لها . وفي اجتماع حضره ممثلون لسوريا والعراق وباركته التمنيات الطيبة للعرب المتعاطفين من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهندى ، دعا المفتي الى اضراب عام في كل انحاء فلسطين . وقد أبلغت السلطات البريطانية ان الاضراب سوف يستمر الى ان توافق بريطانيا على وقف الهجرة اليهودية كليا . واقترن هذا ببدء حملة من التخريب ضد المواصلات الحكومية وأسلاك التليفون والطرق والسكك الحديدية .

مرة أخرى قررت الحكومة البريطانية نزع سلاح العرب بالخدع الدبلوماسية ، فأعلنت عن تشكيل لجنة ملكية للتحقيق في الموقف الفلسطيني .

ولكن اللجنة العربية العليا بقيادة المفتى ، أعلنت مقاطعتها للجنة عند وصولها . ولقد اعتبر الكثيرون ان حرمان العرب على هذه الصورة المتعمدة من الدفاع عن قضيتهم أمام لجنة التحقيق هو اسلوب ينم عن الحماقة . وعلى الرغم من ان اللجنة العربية العليا اذعنت اخيرا بعد ضغوط جدية من جانب الزعماء العرب فى الخارج ، فقد جاء ذلك بعد فوات الاوان ، اذ لم تستمع لجنة التحقيق الا الى شهود معدودين من العرب بالقياس الى كثرة كبيرة من الشهود اليهود والبريطانيين قبل ان تغادر البلاد فى يناير ١٩٣٧ لاعداد تقريرها . وقد رفضت اللجنة مطالب العرب بشأن مؤسسات للحكم الذاتى ، ودعت الى تقسيم فلسطين من العرب واليهود . وكان المشروع الذى اقترحته يعطى ٦٠ فى المائة من المساحة القابلة للزراعة الى اليهود الذين يمثلون ٣٠ فى المائة من مجموع السكان ، بينما يترك للعرب الأراضى الباقية ، مع وضع القدس وبيت لحم والناصرة تحت انتداب بريطانى دائم .

ولقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه التوصيات ، بل وباركتها عصبة الأمم . كما ان عبد الله أمير شرق الاردن نصح عرب فلسطين بقبول التقسيم ، وان كان له هدف آخر هو الحصول لنفسه على أى جزء من فلسطين ، بعد ان رفض اقتراحه فى مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ بضم جميع فلسطين الى شرق الاردن .

والواقع ان نفس هذا التهديد باستيلاء شرق الاردن على فلسطين كان من الاسباب التى دفعت العرب الى رفض مشروع التقسيم على الفور . ثم ان الظلم الصارخ للتقسيم ذاته ، بالاضافة الى الاهانة المتمثلة فى عدم

اعطاء حراسة الأماكن المقـــدسة لشعب حافظ على قداستها طـوال ثلاثة عشر قرنا — كل ذلك كان أكثر مما يتحمله العرب .

انفجر العنف مرة اخرى فى أغسطس ١٩٣٧ حينما أعلن المفتى الحرب على البريطانيين واليهـود وهدد بالموت كل عربى يقصر فى ادانة ومقـــاومة مشروعات التقسيم . ومرة أخرى بدا ان السـلطات البريطانية اخذت على غرة . ولـكن فى سبتمبر عام ١٩٣٧ عندما اغتيل المندوب البريطانى فى منطقة الجليل بدات تتخـذ موقف التشدد . فجىء بالتعـزيزات الى فلسطين . وتقرر الحكم بالاعدام على كل من يحمل أسلحة واعتبرت اللجنة العربية العليا خارجة على القـــانون وفتشت مكاتبها وقبض على اربعة من زعمائها البارزين ونفوا الى جزيرة سيشل . وفر المفتى الى بيروت حيث منحته السلطات الفرنسية حق اللجوء .

ولـكن بالرغم من غياب زعيم للعرب وفداحة الخسائر فى صفوفهم ، اذ زادت فيما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ على الف قتيل بالمقارنة الى ٨٢ يهوديا — فقد واصلوا النضـــــال بمرارة متزايدة . وقد شجعتهم أصوات المؤتمرات العربية فى أنحاء الشرق الأوسط وتأثير المؤتمر الاسلامى لعموم الهند وتحريض اتباع المفتى ، فتمكنوا من السـيطرة على معظم الريف واتلاف المواصـــلات الحديدية ، وهوجمت المستعمرات اليهودية ، وما كان منها معزولا أزيل من الوجود . وكانت الدوريات البريطانية التى تتجاسر على الابتعاد عن نطاق المدن الرئيسية تقع فى الـكمائن ويقتل افرادها . واى عرب يبـــدون غير متحمسين للقضية كانوا يقتلون بأيدى المسلحين من رجال

المفتي . وكان الاعدام مصير اثنى عشر من العمد لأخذهم بأفكار راغب النشاشيبي المعتدلة .

وبعد ثمانية عشر شـــــهرا من اراقة الدماء أرسلت بريطانيا لجنـــة أخرى للتوصية بحل . فقيل لسلطة الانتداب صراحة ان الشروط الوحيـــــدة التي يمكن قبولها لوقف اطلاق النار هي وقف الهجرة اليهودية تماما وانشـــاء حـكومة عربية تمثيلية . وقد قابلت الوكالة اليهودية بالرفض اي تقييد للهجرة أو اية حكومة تمثيلية للعرب . كما بدأت في تنظيم فرق يهودية لمقاتلة الثوار العرب ، وهي التي كانت فيما بعد نواة لعصابات شترين وارجون زفاي ليومي التي انقلب بها اليهود على الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الثانية . وفي نفس الوقت بدأت عمليات تهريب المهاجرين بطرق غير مشروعة حتى نجحوا فيما بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ في ادخال ٣٥ الف مهاجر الى فلسطين بلا تراخيص .

وعلى الرغم من ان العرب كانوا حتى عام ١٩٣٩ يعانون خسائر في الأرواح أكثر من أعدائهم ، اذ بلغت خسائر العرب حتى الآن ٣٥٠٠ مقابل ٢٥٠ من اليهود و ٧٧ من البريطانيين — فقد استمرت الثورة دون توقف ، وظل الريف تحت سيطرة الثوار الى حد كبير . وقد واجهت بريطانيا ازمة خطيرة ، فان سحب الحرب كانت تتجمع قاتمة فـــوق أوروبا عندما تابع هتلر انتصاره في ميونيخ بالاستيلاء على براغ . وبدا أن ما خططت له بريطانيا ليكون مركزا استراتيجيا للدفاع عن قناة السويس قد أصبح الآن يستنزف مواردها العسكرية الضئيلة بصورة خطيرة ، فكان لابد من عمل لتحقيق تسوية في فلسطين .

وهكذا دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر في

لندن فى أوائل عام ١٩٣٩ يمثل فيه عرب فلسطين والوكالة اليهودية والدول العربية . وفى هذا المؤتمر أصر العرب على فلسطين عربية مستقلة مع منح حقوق الاقلية للسكان اليهود الموجودين بها . وأبدى اليهود أنهم لن يناقشوا أى اقتراح تهدد خلق دولة يهودية فى فلسطين . فقد كانت عشرات الملايين من الجنيهات من المال اليهودى ، تدفقت لشراء الأرض من أجل هذا الغرض ، وارتفع عدد القرى والمستوطنات اليهودية الى أكثر من ٢٥٠ ، وأصبحت نسبة اليهود الى العرب ١ : ٢ بعد ان كانت ١ : ١٢ فى عام ١٩٢٠ ، وزاد عدد اليهود الى مليون ، وغدت الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية تطالبان بالمساواة العددية على الأقل .

وهكذا أعلنت الحكومة البريطانية فى مايو ١٩٣٩ الحل الذى تراه فى كتاب أبيض أعترف فيه بحق العرب فى الحكم المستقل وفى الحماية من تأثير الهجرة وشراء الأراضى . واعترافا من الحكومة البريطانية بأن سياستها لم تكن صورة للانصاف ، فقد أكدت الآن أن تكوين دولة يهودية فى فلسطين هو انكار لعهود بريطانيا للعرب . وقد نص الحل على فترة انتقال قدرها عشر سنوات تصبح بعدها فلسطين دولة مستقلة ثنائية القومية ، يشترك فيها العرب واليهود فى الحكومة ، مع السماح بدخول ٧٥ ألف يهودى خلال السنوات الخمس التالية ، تكون بعدها أية هجرة جديدة بالاتفاق مع العرب ، ويمنح المندوب السامى البريطانى سلطة منع شراء اليهود للأرض فى مناطق معينة .

كانت هذه مكاسب للعرب ، فلأول مرة منذ عشرين عاما بدا ان الحكومة البريطانية ادركت أن الاغلبية

العربية فى فلسطين لها قضية . ولو ان طرفى النزاع قبلا هذه السياسة ووافقا على التعاون واقامة دولة ذات قوميتين ، لما تجنب العالم فقط ما أعقب خلق دولة اسرائيل من مرارة وسفك للدماء ، بل ان كيان فلسطين الذى كان من أكثر المجتمعات تقدما وتعليما فى المنطقة كان يتهيأ له البقاء ليصبح مصدرا للقوة والوحدة فى ارجاء الشرق الأوسط كله .

وعلى اى حال فقد رفض كل من العرب واليهود سياسة الكتاب الأبيض رفضا باتا . ولم يبق من سبيل لتنفيذ حل الدولة ذات القوميتين الا أن تفرضه بريطانيا على الجانبين .

ولكن هذا الاتجاه تبدد بنشوب الحرب العالمية الثانية وتوجيه اهتمام بريطانيا الى نواح اخرى . وهكذا ازيحت جانبا سياسة الكتاب الابيض ، واصبحت فلسطين قاعدة عسكرية للمجهود الحربى البريطانى فى الشرق الاوسط .

وبانتهاء الحرب ضاعف الصهاينة جهودهم للسيطرة على فلسطين وكسب التأييد الدولى لقضيتهم . ولقد أهداهم هتلر ورقة رابحة هى عمليات التعذيب والمذابح التى تعرض لها اليهود فى ألمانيا النازية والاراضى المحتلة فى أوروبا . فقد استخدم اليهود هذه الورقة ضد السلطات البريطانية فى فلسطين بسبب رفضها الهجرة اليهودية غير المحدودة ، وتمادى اليهود فى هذا الى حد أن قواتهم السرية قامت بحملة من العنف نافست الثورة العربية فى أعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ .

وبحلول عام ١٩٤٧ ايقنت بريطانيا من فشل سياستها فى فلسطين بعد حكم دام سبعة وعشرين عاما كانت

نتيجته اضعافها أدبيا وعسكريا . فتخلت عن الكتاب الأبيض . وابلغت الأمم المتحدة بوصفها خليفة لعصبة الأمم انها سوف تنفض يدها من المسئولية فى فلسطين اعتبارا من منتصف ليلة ١٤/١٥ مايو عام ١٩٤٨ . وفى خلال ذلك كانت الأمم المتحدة قد شكلت لجنة تحقيق من قبلها.
ومرة اخرى ساعد العرب فى النكبة بمقاطعة الأمم المتحدة. فلعدم وجود أية آراء أو معارضات عربية عادت اللجنة الى فكرة التقسيم بأغلبية ٧ أصوات ضد٤ وفى١٩نوفمبر١٩٤٧، وبعد ممارسة أشد الضغوط على حلفاءأمريكاوخاصةدول امريكا اللاتينية لتأييد مشروع التقسيم - قررت الجمعية العامة بأغلبية ٣٣ صوتا مقابل ١٣ صوتا (وقد صوت الاتحاد السوفييتي مع الاغلبية) تقسيم فلسطين الى دولة عربية ودولة يهودية طبقا للخطوط التى اوصت بها لجنة التحقيق (والذى أعطى للعرب أقل واليهود أكثر مما جاء فى أية مشروعات سابقة) ، وبهذا وافقت على انشاء دولة اسرائيل عند نهاية الانتداب البريطانى .

وعلى الأثر بدأ قادة البلاد العـــربية المجاورة فى الاستعداد لليـوم الذى تنسحب فيـه بريطانيـا من فلســـطين لـكى يدخلوا ويخنقوا الدولة اليهــودية الوليـدة فى لحظـة مولدها . وقـد خانتهم الحـكمة عندما اتجهوا الى المفتى يطلبون عنده الارشـاد . كان الحاج أمين الحسينى بعد أن ايد انقلابا مواليا لألمانيا فى العراق قد أمضى السنوات الأربع الأخيرة للحرب فى برلين يحمل حملات شعواء على بريطانيا من راديو هتلر ويحاول عبثا تحريض العرب على الثورة ضد الحلفاء .
وفى ديسمبر عام ١٩٤٧ استطاع من مقره الجـديد فى القاهرة اقناع الدولة العربية بارسال فرقة من الفدائيين

الى فلسطين لكى تمهد الطريق أمام زحف الجيوش العربية الرئيسية بعد انسحاب البريطانيين . ولكن خطة المفتى فشلت ، اذ كان الفدائيون الذين أطلق عليهم اسم (جيش التحرير العربى) مجموعة غير نظامية اثبتت انها ليست ندا للقوات اليهودية ، لانهم مكنوا اليهود من الاستيلاء على نتوء أرضى كبير فى اتجاه القدس ، حيث كانت مجموعة يهودية أخرى تنتظر الاستيلاء على القدس الجديدة بمجرد انسحاب القوات البريطانية .

وفى ١٥ مايو ما ان انسحب البريطانيون وظهرت دولة اسرائيل حتى قامت الجيوش العربية بالهجوم — المصريون فى الجنوب عن طريق غزة ، والعراقيون والفيلق العربى الأردنى بقيادة الجنرال جلوب عن طريق الضفة الشرقية ، والسوريون واللبنانيون فى الشمال عن طريق الجليل . وفى أول الأمر حقق العرب تقدما طيبا ، فبعد شهر من القتال احتل المصريون النقب ، واستولى الفيلق العربى على القدس القديمة حتى وصلوا الى مسافة عشرة أميال من البحر الأبيض المتوسط عند اللد ، واندفع العراقيون حتى صاروا على بعد ١٥ ميلا من حيفا ، وكان السوريون واللبنانيون فى الشمال هم وحدهم الذين تخلفوا فى التقدم .

عند هذا الحد تولت الأمم المتحدة عن طريق وسيطها الكونت فولك برنادوت السويدى اقناع كلا الجانبين بقبول هدنة . ولقد كانت هذه اللحظة مواتية للعرب ولا شك لاستغلال تقدمهم والتفاوض عن طريق الامم المتحدة للحصول على تسوية أكثر انصافا من مشروع التقسيم الذى فرضته الأمم المتحدة . ولكن بعد أربعة أسابيع من الدعايات العربية المبالغ فيها عن الهزائم الكاسحة التى

انزلت باليهود ، وانسياقا وراء الجماهير فى العالم العربى التى راحت تطالب بجولة أخرى ـ فقد حددت الجيوش العربية الهجوم وهى واثقة انها بدفعة أخرى سوف تجهز على اسرائيل . ولكن القيادة العليا الاسرائيلية كانت قد استغلت الهدنة وحصلت على أسلحة وطائرات من روسيا وتشيكوسلوفاكيا متحدية الحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على تزويد الجانبين بالأسلحة . وهكذا شنت الجيوش الاسرائيلية هجوما مضادا ادى الى استيلائها على اللد والرملة وطرد جميع سكانهما واجتياح الجليل كله . واضطر الفيلق العربى الى تحويل القوات من القدس لسد الثغرات نتيجة للهجوم الاسرائيلى ، وفقدوا آخر فرصة أمامهم للاستيلاء على القدس الجديدة .

وفى ١٨ يوليو قررت الأمم المتحدة هدنة ثانية . ومرة أخرى استغل الاسرائيليون فترة الهدنة للحصول على الأسلحة والطائرات من الكتلة السوفييتية . ولم تكن هذه الفرصة مهيأة للعرب الذين كانوا يعتمدون على السلاح من الدول الغربية وكانت ملتزمة بالحظر الذى فرضته الأمم المتحدة . واكثر من هذا ان العرب اخطأوا الى حد كبير فى تقدير حجم القوات اللازمة لالحاق الهزيمة بالاسرائيليين ، وكان الجيش الاسرائيلى يزيد فعلا على ضعف القوات العربية مجتمعة ، فلم يكن للعرب أكثر من ٥٦ الفا فى الميدان بما فيهم اتباع المفتى غير النظاميين ، فى حين كان لاسرائيل ١٢٠ الفا .

وبهذا التفوق فى الرجال والمعدات خرق الاسرائيليون الهدنة مرة ثانية ، وفى ١٥ أكتوبر زحفوا على المصريين فى الجنوب ، فاستولوا على بير سبع فى خلال أسبوع

واخذوا يدفعون المصريين نحو غزة . وبرغم الدعوة الى هدنة ثالثة ، فما كان يمكن الآن ان يتجنب العرب فقدان جميع الارض التى كسبوها ، بل وأكثر منها . وفى فبراير ١٩٤٩ وقعت مصر هدنة مع اسرائيل . وتلتها لبنان بعد اربعة أسابيع . وعاد السوريون والعراقيون الى بلادهم مهزومين . وكان الاسرائيليون يحتلون الآن كل النقب حتى خليج العقبة . وفى ابريل وقع شرق الأردن الهدنة بدوره .

لقد انتهت الحرب . ومحيت فلسطين . وظفرت اسرائيل ليس فقط بكل الارض التى منحت للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم ، ولكنها انتزعت ايضا حوالى نصف الأرض المخصصة للعرب .

ولكن كان ابشع وافجع شىء هو مصير سبعمائة الف لاجىء عربى كان بعضهم قد هرب امام زحف اليهود ، ولكن معظمهم كأهل اللد والرملة قد طردتهم الجيوش الاسرائيلية من دورهم ومزارعهم ، ووجدوا انفسهم مكدسين بصورة محزنة فى معسكرات أقيمت على عجل فى قطاع غزة وفى الحطام الممزق الذى كان من المقرر أن يكون الدولة العربية ، يعيشون على الاحسان الذى تبعث به الأمم المتحدة ، محرومين من الحق الاولى فى اعادة توطينهم فى أرض اسلافهم منذ اقدم العصور .

ومن الانصاف القول بأن مأساة فلسطين لم تكن غلطة بريطانيا أو الدول الغربية أو الأمم المتحدة وحدها ، فكم أضاع العرب فرصا حقيقية كان يمكن أن تحقق لهم مطالبهم ولو مجزأة . ولا شك ان اللوم فى هذا يقع على المضللين من الزعماء الذين طالبوهم فى تطرف اعمى برفض اى تفاهم وتراض ، حتى انهم راحوا بعد فوات

الاوان يرفعون عقائرهم مبدين استعدادهم بقبول التقسيم الذى قررته الامم المتحدة . وبعد أن رفضت اسرائيل التنازل من بوصة واحدة من الارض التى غزتها ، فأن كل ما استطاع العـــــرب تحقيقه ، أو بالأحرى الامير عبد الله ، هو وضع ما تبقى من الدولة العربية المزقة الأوصال تحت جناح شرق الأردن . وهكذا وسع عبد الله نطاق ممتلكاته التى أصبحت تعـــــرف باسم المملكة الأردنية ، والتى يتكون ثلث سكانها من فلسطينيين ، نصفهم من اللاجئين .

ان هذا الملك قد حطم فى النهاية آمال المفتى فى العودة كزعيم لفلسطين عربية . فخـــــلال الحرب مع اسرائيل كان المفتى قد شـــــكل (حكومة عربية لعموم فلسطين) لكى تتولى الزمام فى المنــــاطق التى يسيطر عليها العرب ، وجند جيشا خاصا لتأييده . ولكن الفيلق العربى بأوامر من عبد الله فرق شمل هذه المجموعة غير النظامية ، وحمل المفتى على الرحيل . فكان ضم عبد الله لما تبقى للعرب فى فلسطين ، بالاضــــافة الى الصراع الطويل بين الرجلين حول السياسة والتكتيكات العربية خلال الانتداب ــ كان هذا وذاك بمثــــابة القشة التى قصمت ظهر البعــير فى نظر المفتى . وفى ٢٠ يوليــو عام ١٩٥١ اطلق قاتل مأجور من قبل المفتى النار على عبد الله فصرعه وهو يغادر المسجد الأقصى فى القدس بعد صلاة الجمعة .

ولكن هذه الحلقة الطافحة بالالام فى التاريخ العربى لم تنته فصولا .

الفصل السابع والعشرون :

عهد نورى السعيد المتسول الأكبر

فى الوقت الذى كانت فيه فلسطين تنحدر الى الكارثة خلال الثلاثين سنة التى اعقبت نقلها من الوصاية التركية الى الوصاية البريطانية فى عام ١٩١٨ ، كان العراق يبدأ فترة من التوسع الاقتصادى والسياسى لم يعرفها منذ عهد الازدهار فى ظل الخلافة العباسية . فقد تدفق (الذهب الأسود) من آبار البترول فى الموصل وكركوك والبصرة ، وخرجت الدولة من الشرنقة التى احتبست فيها طوال اربعة قرون من الحكم العثمانى .

ان نظام الحكم كان حكم أقلية تؤازره بريطانيا ، مع قشرية مظهرية من الديمقراطية البرلمانية الحديثة ويرجع ذلك الى حد كبير الى تأثير نورى السعيد ، ذلك الدكتاتور الناعم المظهر الذى يبدو كنعجة عجوز ولكنه حكم العراق بقبضة من حديد معظم هذه العقود الثلاثة ، وأسلم زمامه لبريطانيا بالتملق الى حد جعلها تعطيه كل ما يريد ، حتى وصفه سفير بريطانى بانه (كان اكبر متسول عرفته) .

ولد نورى السعيد فى ديسمبر عام ١٨٨٨ فى عهد السلطان عبد الحميد من اسرة فقيرة فى بغداد كانت تعيش فى بيت جدرانه من الطين . وفى عام ١٩١٠ وبعد أن تلقى تعليمه فى كلية حربية فى اسطنبول تزوج اخت صديقه الحميم فى بغداد جعفر العسكرى الذى تزوج اخت

نوري بدوره . وفي عام ١٩١٧ انضم الى صهره جعفر الذي كان قد هرب من الجيش التركي وتولى قيـــادة قوات فيصل في سوريا . ولما دخل فيصل دمشق في اكتوبر ١٩١٨ جعل نوري قائدا لحامية المدينة . ومكافأة له على جهوده رقي الى رتبة جنرال ، ومنحته بريطانيا اكثر من وسام . وبعد أن طـرد الفرنسيون فيصلا من سوريا صحبه نوري الى المنفى في فلسطين .

ثم كانت ثورة قبائل وادي الفرات في يونيو ١٩٢٠ ضد الحكم الاستعماري البريطاني المباشر وما انتهت اليه من السماح للعراق بانتخاب برلمان وحكومة تمثيلين (مع بقاء الموظفين البريطانيين كمجرد مستشارين في الظاهر) ، واختيار فيصل ملكا على الدولة العراقية في ٢٣ اغسطس عام ١٩٢١ . وهنا لم ينس فيصل ان هذا الانتخاب قد تم الى حد كبير بفضل الحمـــــــاسة في تصيد أصوات الناخبين من جانب نوري صديقه وخادمه المخلص . فمنذ ذلك الحين زادت الصلات توثقا بين الاثنين ، واصبحت قصة العراق هي قصة ما رسخ بين الاثنين من مشاركة وتفاهم . ولعله بغيرهما ما كان يمكن ان يتم ما تم من بناء دولة متماسكة في العراق فيما بين الحربين العالميتين . ذلك انه ما من بلد عربي آخر كان يعاني تلك الكثرة من المشكلات والانقسامات . فقد كان العـــراق شعبا من أقليات عنصرية ودينية . كان ثلاثة أرباع سكانه البالغ عددهم ثلاثة ملايين من العـــــرب ، ومن الربع الآخر المتمركز اساسا في منطقة الموصل نصف مليـــــون من الاكراد . ومن الناحية الدينية كان المسلمون ينقسمون بالتساوي بين الشيعة وأهل السنة ، مع ما يتصل بهذا من تنافس طائفي تقليدي .

والى جانب هذه التقسيمات كانت المنـازعات القبلية دائمة حول ملكية الارض وحقوق الماء خصوصا فى وادى الفرات . وعلى الحدود كانت المصـــادمات مستمرة مع العربية السعودية ومع الكويت التى كان العراق يطالب بحق امتلاكها . وقد حاول الاكراد الذين لم يندمجوا قط فى مجتمع يغلب عليه العنصر العربى الانفصـــال واقامة دولة خاصة بهم متمتعة بالاستقلال الداخلى . ومع ذلك فقد استطاع فيصل التغلب على هذه المشكلات ، فقد اشترى الاكراد بما عرضه من تمثيلهم فى الحكومة العراقية ، ومنح تعويضات للقبائل ، ومع أن النزاع مع الكويت بقى على حاله ، فقد عقد مع السعوديين اتفاقا حول الحدود .

وكان نورى وفيصل يعرفان ايضا انهما بتوثيق التعاون مع بريطانيا يستطيعان الحصول على استقلال العراق . وفى أكتوبر ١٩٢٢ أبدل الانتداب بمعاهدة تحالف . وفى يناير ١٩٢٦ ثم فى ديسمبر ١٩٢٧ وقعت اتفاقات أعطت العراقيين مزيدا من الاســــتقلال الداخلى . ثم عقدت فى يونيو ١٩٣٠ بعد أن أصبح نورى رئيسا للوزراء لاول مرة معاهدة نهائية أعطت العراق استقلاله ، مع وعد بعقد تحالف عسكرى مع بريطانيا لمدة خمس وعشرين سنة .

هكذا وصل نورى الآن الى أوج حياته السياسية . ولكن وفاة فيصل فى سبتمبر عام ١٩٣٣ بهبوط فى القلب أطاحت بنورى السعيد . وفى خضم القلاقل التى غرق فيها العراق اغتيل جعفر العسكرى ، ولجأ نورى الى مصر ، ولكنه استطاع أن يعــــود فى عام ١٩٣٨ ليصبح رئيسا للوزراء للمرة الثانية .

ولكن متاعب العراق لم تكن لها نهاية . فقد توفى الملك

غازى ابن فيصل وحليفته فى ابريل عام ١٩٣٩ فى حادث سيارة وخلفه فيصل وهو طفل فى الثالثة من العمر ، واسندت الوصاية على العرش الى الأمير عبد الاله وهو ابن عم على ملك الحجاز المعزول . وعند نشوب الحرب العالمية الثانية نفذ نورى التزامات العراق لبريطانيا طبقا لمعاهدة ١٩٣٠ وطرد المبعوث الالمانى وجميع الرعايا الالمان ، واكد تأييد العراق التام لقضية بريطانيا .

على ان عام ١٩٤٠ شهد ازدياد قوة العناصر الموالية للألمان من الوطنيين المتطرفين وعلى رأسها الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين السابق الذى جاء الى العراق من منفاه فى بيروت ، وكذلك رشيد عالى الكيلانى وهو محام عراقى أسس حزب الاخوة الوطنية للمطالبة باستقلال العراق . وقد انضم الى هذه القوى الموالية للألمان جماعة (المربع الذهبى) وكانت تتألف من أربعة من قواد الجيش والطيران البارزين . واستغل هؤلاء جميعا المشاعر الموالية للألمان فتمكنوا من الضغط على الأمير عبد الاله الوصى على العرش وتعيين رشيد عالى الكيلانى رئيسا للوزراء ، وان سمحوا لنورى السعيد بالبقاء فى الحكومة وزيرا للخارجية سترا للمظاهر ، ولكنه استقال فى ابريل عام ١٩٤١ عندما اخفق فى استمالة الجميع الى جانب بريطانيا . وظل رشيد عالى والمربع الذهبى يشددون الضغط حتى تمكنوا من عزل الوصى على العرش بقرار من الجمعية الوطنية . وفى ٢ مايو أعلن رشيد عالى الحرب على بريطانيا . ولكن نورى والوصى تمكنا من الالتجاء الى السفارة البريطانية ، وتم تهريبهما الى شرق الأردن .

وفى خلال ذلك ادى صمود البريطانيين للهجوم الالمانى فى جزيرة كريت الى قطع امداد الاسلحة الالمانية عن

جماعة المربع الذهبى ، مما أدى الى انهيار الانقلاب الذى قام به رشيد عالى ومؤيدوه بعد اعلان الحرب على بريطانيا بأربعة أسابيع ، وعلى الأثر هرب رشيد عالى والمفتى وجماعة المربع الذهبى الى طهران ، وعاد نورى وعبد الاله الى بغداد مظفرين .

ولكن نورى السعيد بدلا من استئناف منصبه كرئيس للوزراء قصد مع بعثة الى القاهرة لكى يقترح على المصريين مشروعا لاقامة اتحاد بين البلاد العربية كان فى حقيقته احياء لفكرة الهلال الخصيب الذى يضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن مع انضمام البلاد العربية الأخرى اليه فيما بعد ، وكان يهدف من ورائه الى خلق دولة عربية عليا بزعامة العراقيين والهاشميين . ولكن المصريين الذين فطنوا الى هذا الهدف رفضوا المشروع رغم محاولات نورى المتكررة فيما بين ١٩٤٢ وعام ١٩٤٤ . وفضلت الحكومة المصرية وقتـذاك مشروعا آخر ايدته بريطانيا لقيام وحدة بين البلاد العربية هو مشروع الجامعة العربية من مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن واليمن والعربية السعودية ، مع اتخاذ القاهرة كمقر لها ، ويكون لمصر فيهـا النفوذ الأغلب . وفى مارس ١٩٤٥ اضطر نورى السعيد الى توقيع العراق مع جميع تلك الدول العربية على ميثاق الجامعة العربية ، ثم استقال من رئاسة الوزارة .

ولكن قبول نورى للجامعة العربية بدلا من الهـلال الخصيب لم يكن معناه انه قبل الزعامة المصرية . وعلى الرغم من بعده عن المناصب الرسمية فى السنوات الاربع التالية ، الا انه بدأ يتزعم نضالا من أجل القوة ضد مصر ـ ذلك النضال الذى استمر الى ما بعد مصرعه فى انقلاب

عام ١٩٥٨ على يد اللواء عبد الكريم قاسم ، والذى امعن فيه بدوره بهجماته العنيفة على جمـال عبد الناصر .

والواقع ان هذا الصراع كانت له جـذوره فى التاريخ العربى . فالتنافس بين القاهرة وبغداد قام من عهـد انحلال الخلافة العباسية عندما جعل صلاح الدين من مصر قاعدته لتحرير فلسطين من الاحتلال الصليبى ، وبعد أن صد بيبرس الزحف المغولى بعـد ذلك بمئة عام ، وبهذا انقذت مصر الشرق الأوسط من المغول ، كما انهـا كانت أول دولة عربية تحدت التسلط العثمانى .

بعد أن حملة نورى السعيد المعادية لمصر لم تكن كافية لتوفير الهدوء فى بلده ، وبدأ العراق يسير من سيىء الى اسوأ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وقد تمثل ذلك فى كثرة الحكومات المتعاقبة ، وازدياد الشعور المعادى للبريطانيين لاعادة النظر فى المعاهدة المعقودة بين العراق وبريطانيا عام ١٩٣٠ .

ومرة اخرى استدعى الوصى نورى السعيد لتشكيل حكومة جـديدة فى عام ١٩٤٩ . وفى هـذه المرة قرر نورى أن يركز سياسته على التنمية الاقتصـادية الداخلية . وفى الشئون الخارجية عاد الى مشروع الهلال الخصيب ، ولكن فى صورة اخرى ، فقد ركز على اتحاد سوريا مع العراق . وفى هـذا كان نجاحه ضئيلا ، ولا سيما بعد ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ عندما اخذت دعوة جمال عبد الناصر المغناطيسية تحدث تأثيرها القوى فى الراى السورى ، وبعد وقت اختارت سوريا الانضمام الى مصر فى الجمهورية العربية المتحدة ، تاركة نورى السعيد يبحث عن شىء آخر ، وقد تمثل هذه المرة فى

اتحاد فيدرالى بين المملكتين الهـــاشميتين فى العراق والأردن .

ولكن دبلوماسية نورى السعيد اتجهت الى مجال آخر عندما تغيرت علاقة العراق الدفاعية مع بريطانيا فأصبحت مشاركة معها فى ظل حلف عســـكرى جديد بين جيران روسيا فى الشرق الأوسط . وكانت بريطانيا قد حاولت منذ عام ١٩٥١ انشاء نظام دفاعى للشرق الأوسط يضم العالم العربى ، ولكن المحاولة قوبلت بمعارضة من جانب مصر ، فاتجهت لندن وواشنطن الى عراق نورى السعيد والى تركيا للاشتراك فى ايجاد درع عسكرى للاقاليم المكشوفة شمال الشرق الأوسط المجاورة للاتحـــــاد السوفييتى . وفى فبراير ١٩٥٥ تطوع نورى لارضائهما بحلف عسكرى مع تركيا عرف باسم ميثاق بغداد لم تلبث بريطانيا ان انضمت اليه بعد ستة أســابيع . وسرعان ما انضمت باكستان وايران الى الحلف اكمــالا لخط الدفاع على طول حدود روسيا الجنوبية .

ولقد اثار التوقيع على ميثاق بغداد عاصفة احتجاج من القاهرة ، التى رأت فيها محاولة لاحياء فكرة الهلال الخصيب بطريقة الباب الخلفى بعد استدراج بلاد عربية أخرى اليه مثل سوريا والأردن . واشتدت حملة اذاعة القاهرة على نورى السعيد وعبد الاله باعتبارهما أعــداء للوحدة العـــــربية وعملاء للأمبريالية الغربية . ومنيت سياسة نورى فى التعاون مع الغرب بالفشل .

وفى خلال ذلك كان الاســــتياء يتزايد بين الساسة وضباط الجيش الشبان من الجو الخانق فى العراق ، ولا سيما بعد أن حل نورى جميع الأحزاب السياسية وركز كل الســلطات فى يديه . ومع ازدياد القوى التى

تساند نظام ناصر الجمهوري وسياسة الحياد في كل بلد عربي ، فقد استهدف العراق لعزلة خطيرة عن الدول العربية الشقيقة ، وتزايد القلق حتى بين زملاء نورى بشأن مستقبل نظام الحكم .

ثم جاءت لحظة في يوليو عام ١٩٥٦ كان يمكن فيها أن يتغلب العراق على عزلته في الجامعة العربية ، لولا حادث تأميم ناصر لقنـــاة السويس الذى ارتكبت فيه بريطانيا أشنع أخطائها في الشرق الأوسط . وقد تصادف أن كان نورى السعيد والملك الشاب فيصل في لندن عندما أعلن ناصر قراره ، فبادرا بالاشارة على السير انتونى ايدن باتخاذ اجراءات حازمة . ويبدو أن هذه المشورة وجدت صداها . فقد بدأت بريطانيا ممارسة ضغط دبلوماسي مع الدول البحرية الرئيسية الأخرى في العالم،ثم لم تلبث أن تحولت فجأة الى القيام بحشد عســكرى ثنائي مع فرنسا ، مصحوبا بنذر خافتة تشير الى تعبئة اسرائيلية . وعنـــدما هجم الاسرائيليون عبر سيناء الى السويس ، انذرت بريطانيا كلا الطرفين بالابتعاد عن القناة ، وكان مدلول هذا حمل المصريين على التقهقر والتخلى عن كل سيناء للغزاة ، والسماح للاسرائيليين بالتقدم أكثر من مئة ميل في الأراضي المصرية .

وسرعان ما أثارت هذه الدعوة الصارخة لاســتيلاء اسرائيل على عشرين الف كيلو متر مربع من مصر فورات الغضب العارم في جميع أنحاء العالم العربي ضد اسرائيل والبريطانيين والفرنسيين وضد (صنيعتهم وخادمهم) نورى السعيد . واضطر نورى في النهـاية الى مجاراة المشاعر العربية ، فقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، وانضم الى الجميع في التنديد باسرائيل . كما أشير على

بريطانيا بالابتعاد فترة عن اجتماعات ميثاق بغداد الى أن تهدأ العاصفة .

واذا كان نورى قد نجح بهذا فى تسكين المشاعر الشعبية الهائجة ، فانه كان أول المخدوعين بهذا الهدوء الظاهرى ، واستخف بالتحذيرات التى كان يتلقاها عن مؤامرات تحاك من بعض قادة الجيش لاسقاطه . وفى نهاية الاسبوع المنذرة بالسوء قبل ثورة اللواء عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٥٨ ضرب نورى بكل احتياط أدراج الرياح عندما سمح بوجود جماعة عسكرية مسلحة فى بغداد دون ان تقابلها قوة مضادة لمواجهتها اذا فكرت فى القيام بأى انقلاب .

فقد كان قاسم على راس قوة فى طريقها لتعزيز قوة الملك حسين تفاديا لثورة تنشب فى الاردن كالتى نشبت حديثا فى لبنان ضد الرئيس شمعون الموالى للغرب . وسرعان ما ضرب قاسم ضربته التى ظل سنوات يعد لها العدة بعد ان تأكد ان اللواء الذى يقوده هو القوة الوحيدة فى بغداد تلك الليلة (١٣ يوليو) ، وبعد اتصال سريع ببعض الساسة المعروفين بمعارضتهم لنظام الحكم . فقد استولى على محطة الاذاعة وأعلن ان الثورة انتهت وان الملك وعمه عبد الاله ونورى السعيد قد لقوا حتفهم . ثم أمر قواته بالتوجه الى القصر لتنفيذ هذا الذى أعلنه . فقام رماة قاسم بحصد الأسرة الملكية بأسرها بنيران مدافعهم ، ولقى نورى مصرعه وهو يحاول الافلات . وفى خلال ذلك أحرقت الجماهير السفارة البريطانية ظنا بأنه احتمى بها على نحو ما فعل فى مناسبة مماثلة .

ومهما قيل فى تبرير تعاون نورى السعيد الوثيق مع بريطانيا من أن هذا التعاون أدى الى بناء قوة العراق

الاقتصادية والعســــكرية بعد اربعة قرون من الحكم العثماني – فان الجيل الجديد من القوميين العرب أصبح يستنكر الاستجداء من الغرب ، بل ويعده لونامن الخيانة. ولم يبرح الأذهان ما نكبت به فلسطين وسوريا من خيانة على أيدى دول الغرب التى لم تتورع عن الغدر بالعرب والتنكر لوعودها معهم . ثم أن ثورة عربية جديدة قد تفجرت على العالم يقودها رجال مثل جمال عبد الناصر – رجال اقسموا أن يخلصوا العرب من تهديدات ومهانات الاحتلال الغربى والوصاية الغــــربية ، وأن يقضوا على الخونة من طينة نوري السعيد الذى عاش وعمل مع من خانوا الحرية العربية وحطموا الوحدة العربية .

الفصل الثامن والعشرون :

مصر من كرومر إلى ناصر

كان دور بريطانيا فى مصر حتى ثورة ١٨٨٢ بقيادة احمد عرابى لا يزيد كثيــــيرا عن دور المراقب المالى . فان الخديو اسماعيل المبذر قد ضاعف ديون مصر من ٣ مليون جنيه الى ٩٤ مليون جنيه ، واضطر الى بيع اسهمه فى قناة السويس للوفاء بديونه للدائنين الاوروبيين . وبعد ذلك فرضت بريطانيا وفرنسا وغيرهما من القوى الاوروبية رقابة صارمة على الانفاق العام المصرى عن طريق لجنة دولية . وعلى الرغم من أن الضباط البريطانيين كانوا يخدمون فى جيش الخديو ، الا ان القوات البريطانية لم تكن قد احتلت بعد بوصة واحدة من ارض مصر .

ولكن هذا كله قد تغير بعد هزيمة عرابى فى التل الكبير فى سبتمبر ١٨٨٢ . كانت مصر لا تزال من الوجهة الاسمية جزءا من الامبراطورية العثمانية ، ولكن الباب العالى لم يبذل اية محاولة لتأكيد سلطته . وبعد أن صار لبريطانيا جيش فى مصر ، اصبحت لا تسيطر على ماليتها فقط ، بل تسيطر بالفعل على البلاد كلها ايضا . وكانت الفوضى ضاربة اطنابها فى كل مكان ، اذ كانت الحكومة المصرية اداة عزلاء فى يدى خديو مستبد ومغلوبة على امرها

فى معاملاتها المالية بسبب الامتيازات التى منحتها الامبراطورية العثمانية للقوى الأوروبية فى القرن السادس عشر . فقد كان رعايا هذه القوى لا يخضعون للقانون المصرى ، وكانت مخالفاتهم يفصل فيها قناصل دولهم . ونتيجة لهذا كان المقيمون الأوروبيون يمارسون الجريمة والابتزاز والتهرب من الضرائب وهم فى حصانة كاملة . وعندما عين السير ايفلين بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) تحت لقب متواضع هو قنصل عام بريطانيا ، واجه مهمة شاقة ، اذ كانت السلطة كلها مركزة فى يد الخديو وليس هناك برلمان او احزاب سياسية . ولكنه استطاع استنادا الى جيش الاحتلال وسلطة الرقابة المالية ان يحد من سلطة الخديو لصالح الطبقات المظلومة ، فالغيت السخرة والضرائب التى كانت تجبى بالكرباج ، ووضعت نظم جديدة لضرائب الاطيان طبقت على الأغنياء لا الفقراء . ولأول مرة أمكن الوفاء بالالتزامات المالية . ولكن كرومر أهمل اصلاح التعليم ، ولم يعمل على ايجاد جهاز دستورى به ادارة مصرية مسئولة لممارسة السلطات التى انتزعها من الخديو . ولم يكن الوزراء الذين عينهم كرومر أكثر من دمى يحركها بيديه . وفى مجال السياسة الخارجية كانت بريطانيا مشغولة بالمطامع الفرنسية فى مصر ، فان فرنسا لم تكف عن معارضتها لازاحة نفوذها كالقوة المتفوقة فى مصر ، وهو مركز احتفظت به منذ أن بنى فردينان دلسبس قناة السويس . وعلى الرغم من كل ما أعلنه غلادستون رئيس وزراء بريطانيا من انه ليس لها دوافع امبريالية ، فانها لم تكن تعتزم الخروج من مصر تحت أية ظروف اذا كان معنى هذا تمكين فرنسا من حرية التصرف فى مصر .

ولكن بعد ذلك بعشرين عاما ، أى فى عام ١٩٠٤ ، حلت

مشكلات بريطانيا مع فرنسا بابرام (الاتفاق الودى) الذى تخلت بمقتضاه فرنسا عن دعاواها فى مصر مقابل اطلاق يدها فى مراكش .

بيد ان القلق الوطنى ما لبث ان تجلى واتسع نطاقه بعد اعتزال كرومر وتعيين السير ايلدون غورست مكانه. فان هذا الاخير عكس سياسة كرومر واعاد الى الخديو عباس حلمى كثيرا من السلطة التى انتزعها كرومر منه . كان هذا الخديو من اشد انصار الحكم التركى المطلق . ولهذا استعان بالتجار وملاك الاراضى الاغنياء لاعلان الحرب على قادة الفكر الحر ، واستخدم الصحافة لمهاجمة الادارة البريطانية سترا لغـــرضه الحقيقى . وكانت النتيجة المحتومة ان الرأى العام انقلب على الموظفين البريطانيين . وكان سماح بريطانيا بانشـــــاء جمعيات تشريعية محلية ومركزية وسيلة أخرى استعان بها الخديو عباس حلمى لتعون منبرا يهـــاجم منه الوطنيون البريطانيين فى كل مناسبة تحريضا للجماهير على استخدام العنف .

وبحـــلول عام ١٩١١ كانت مصر فى حالة من الفوضى الشاملة بسبب الاضطراب السائد . وعندما توفى غورست فجاة خلفه فى منصب المقيم البريطـــانى فى مصر اللورد كتشنر وكان جنديا يكره الساسة المستغلين الذين كانوا صنائع للخـديو ولا هم لهم ســوى الاثراء على حساب الشعب . فعمل على توسيع نطاق حماية الفلاحين باصدار قانون (الخمسة أفدنة) لمنع طرد صغار الفـــلاحين من أراضيهم بسبب عدم سداد الديون ، متجاهلا احتجاجات كبار الملاك .

وعند نشوب الحرب العالمية الاولى وانضمام السلطان العثـــمانى الى الالمان فى اكتوبر ١٩١٤ أعلنت بريطانيا

الحماية على مصر وعزلت عبــاس حلمى الموالى للاتراك لصالح عمه حسين كامل خوفا من تهديد القواعد التركية فى فلسطين لمصر وقناة السويس ، وبدات تنظم الدفاع عن البلاد ضد الجيوش العثمانية .

والواقع ان سنوات الحرب العالمية الاولى الاربع كانت بالنسبة الى مصر عبودية وتعــاسة . فلم يكن فى مصر حكومة من صميمها ، وكان المندوب السامى البريطانى هو الحاكم الفعلى . وقد قرر هو والقــادة العسكريون أن يستخدموا أرض مصر والأيدى العاملة والتسهيلات فيها للمجهود الحربى دون حاجة الى تأييد عسكرى مصرى . وبسبب هذه المعاملة المزرية للمصريين خصوصا من جانب القوات البريطانية وتصرفاتها المهينة ، تولد استياء عميق فى النفوس ملأها سخطا ومرارة ، ولا سيما بعد عــودة نظام السخرة والاستيلاء الجبرى من الفلاحين على العلف والحيوانات لسد حاجة الجيوش المتحالفة .

وبانتهاء الحرب كان الراى العــــام المصرى فى حالة متفجرة الى حد بعيد ، ولم يكن يحتاج الا الى زعيم شعبى ليطلق الانفجار . وقد لبى هذه الحاجة سعد زغلول احد زعماء المعارضة فى الجمعية التشريعية والصديق الحميم للطفى السيد فيلسوف الفكر الليبرالى المصرى منذ بداية القرن العشرين . كان زغلول وهو ابن فلاح مصرى فى الدلتا قد تزوج ابنة أحد رؤســـــاء الوزارات فى عهد عباس حلمى . وكان عباس حلمى يختصه بارتيابه العميق بسبب معارضته لاطماع الخديو . ولــكن آرائه الليبرالية راقت كرومر الذى عينه وزيرا للمعـــــارف عام ١٩٠٦ . وشغل زغلول هذا المنصب اربع سنوات ، وظــل ثلاث سنوات اخرى وزيرا للحقانية . ولكنه تشاجر مع كتشنر عام ١٩١٣

واستقلال ، ورغم ذلك انتخب عضوا فى الجمعية التشريعية. ومنذ ذلك الحين استخدم حريته النسبية فى الدعوة الى نظريته فى ديمقراطية عصرية لمصر ــ على اســاس دولة علمانية ليبرالية يجرى فيها تمصير الاقتصاد ، وزوال النفوذ التركى فى السياسة ، والغــاء حجاب المرأة ، وتحطيم قوة الباشوات . وكان موقفه ازاء الاحتــلال والنفوذ البريطانى موقف المتساهل لاستخدامه فى كبح سلطة الخـديو وسادته الأتراك . أما بقـاء البريطانيين فى مصر لحماية مصالحهم بعد هزيمة الأتراك فاهانة للشــــعور الوطنى المصرى . وهكذا لم يمض يوما على انتهاء الحرب العـــــالمية الأولى حتى توجه زغلول الى المندوب السامى البريطـــــانى سير ريجنالد ونجيت على رأس وفـد وطنى وطالب بالنيابة عن الشـــعب المصرى بالاستقلال التام عن الحكم البريطانى .

كان الرد على ذلك هو ان بريطانيا لا يمكن ان تناقش مثل هذه المســـــائل مع هيئة غير رسمية . كما قوبل بالرفض اقتراح رئيس الوزراء المصرى عدلى باشا بالسفر الى لندن لاجراء محادثات مع الحكومة البريطانية. فانتهز زغلول الفرصة لاثارة الرأى العام ، واسس حزب الوفد تحت زعامته . وفى مارس ١٩١٩ وجه خطابا تهديديا الى سلطان مصر ــ اذ كان لقب الخديو قـد غير عنـد الانفصال الرسمى عن تركيا فى عام ١٩١٤ ــ اتهمه فيه مع الحكومة بعدم الكفاح من أجل قضية الاستقلال . فاعتقل زغلول مع أقرب مؤيديه ونفوا الى مالطة ، وفى اليوم التالى قامت أعمال الشغب فى القاهرة ، ثم انتشرت فى المديريات فى مدى أسبوع مقترنة بأعمال العنف ، وقتل عدد من الأوروبيين .

واذا كانت بريطانيا قد استدعت مندوبها السامي الذي حل محله اللورد اللنبي وأفرجت عن سعد زغلول وسمحت له بالعودة الى مصر ، فانها عمدت الى التسويف والمماطلة في اتخاذ القرار ، وبعثت كعادتها بلجنة تحقيق برئاسة اللورد ملنر . وعندئذ نظم سعد زغلول ورفاقه مقاطعة للجنة على مستوى الأمة ، وهاجمتها الصحف بعنف ، ونظمت المظاهرات احتجاجا على سياسة التسويف ، وفي خلال ذلك قبض على زغلول مرة ثانية ونفى ، وأعقب هذا اضرابات ومظاهرات. وفي النهاية اتخذت بريطانيا في فبراير ١٩٢٢ قرارها بالغاء الحماية والاعتراف بمصر بلدا شبه مستقل . وطبقا لما كان في الأقاليم الخاضعة للانتداب مثل العراق وسوريا ولبنان ، تقرر أن تكون مصر دولة علمانية ولها برلمان من مجلسين ، على ان تبقى القوات البريطانية للدفاع ولحماية الجالية الأوروبية والمصالح البريطانية مثل قناة السويس وحماية الادارة الثنائية في السودان ، مع عدم المساس بالامتيازات الأجنبية . وبرغم ذلك لقيت هذه القرارات قبولا . وفي مارس ١٩٢٢ نودى بالسلطان فؤاد الذى خلف اخاه السلطان حسين بعد وفاته في عام ١٩١٧ ملكا على مصر . وأفرج عن سعد زغلول في سبتمبر ١٩٢٣ ، وفي أول انتخابات أجريت في ظل الدستور الجديد نال فوزا تاما لنفسه ولحزبه .

لكن المصريين لم يلبثوا ان اكتشفوا ان هذا الاستقلال لم يكن معناه نهاية الاحتلال البريطاني والسيطرة على سياسة مصر الخارجية ، وأن حكوماتهم كانت في الواقع لا تزال تشكل وتتلقى التعليمات على مائدة العشاء في دار المندوب السامي البريطاني ، وانتهو الى انه لم يحدث سوى تغيير يسير بالغاء الحماية . وه١٤٢

قامت المظاهرات من جديد . وفى نوفمبر ١٩٢٤ اغتيل السير لى ستاك البريطانى سردار الجيش المصرى فى القاهرة ، وعلى الأثر وجه اللنبى انذارا نهائيا الى زغلول طالب فيه بتقديم الاعتذار الكافى عن الجريمة وتوقيع العقاب الصارم على مرتكبيها ، مع دفع غرامة للحكومة البريطانية قدرها نصف مليون جنيه ، وسحب جميع وحدات الجيش المصرى بالسودان فى خلال اربع وعشرين ساعة . ولقد قبل سعد زغلول المطالب الثلاثة الأولى ، ولكنه رفض سحب القوات المصرية من السودان ، وهنا استخدمت بريطانيا القوة لاخراجهم ، ومنذ ذلك الحين تولت السلطة الوحيدة فى الادارة الثنائية .

استقال سعد مخذولا ذليلا ، وعلى الرغم من ان حزبه فاز بالاغلبية مرة اخرى فى انتخـــاب عام ١٩٢٦ الا أن المندوب السامى البريطـــانى لم يسمح له بتولى رئاسة الادارة بعد ذلك . ثم توفى عام ١٩٢٧ وخلفه مصطفى النحاس باشا فى رئاسة الحزب ، وعلى الرغم من انه هو الذى تفاوض بشأن معاهدة الاستقلال فى النهاية عام ١٩٣٦ ، فان موقف الصلابة الذى اتخذه زغلول فى اوائل العشرينات هو الذى مهد الطـــريق ، بعد أن اقتنعت بريطانيا اخيرا بأن مثل هذه المعاهدة ستكفل مصالحها . والواقع أن سعد زغلول كان منصرفا بكليته الى تحقيق الحرية لمصر ، حتى لم يتفرغ للمشاكل العربية الأخرى مثل فلسطين ، وعندما لجأ اليه وفد فلسطينى فى أوائل العشرينات يطلب المساعدة ، نصحهم ان يتصالحوا مع اليهود ويعيشوا سويا كمـــا عاش العربى واليهودى فى مصر .

وفى ٢٢ اغسطس عام ١٩٣٦ وقعت اخيرا معـــاهدة

تحالف من جانب النحاس وانطوني ايدن وضعت نهاية للاحتلال ، مع السماح لبريطانيا بابقاء عشرة آلاف جندي في منطقة القناة ، حتى لا يؤذي وجود هذه القوة مشاعر السكان في المدن مثل القـــاهرة والاسكندرية . وقد اعترفت مصر بأن قنـــــاة السويس ممر مائي دولي حيوي ، نظير الاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة . وأصبح المندوب السامي البريطاني ســـفيرا ، وعندما ألغيت الامتيازات بموجب اتفاق تم توقيعه في مونتريه عام ١٩٣٤ ، قضى بذلك على كل أثر للامتيازات الأجنبية في مصر .

لكن لم تنقض ثلاثة اعوام حتى حطمت الأحداث التي أعقبت نشوب الحرب العالمية الثانية جو السلام والصداقة النسبيين . فمرة أخرى أصبحت مصر ميدان حرب في الصراع الـكبير بين القوى الأوروبية ، فضاعفوا من عدد قواتهم المسموح بها في قناة السويس غير عابئين بالمشاعر المصرية ، واستمروا يحتفظون بالقوات في ثكنات تقع في وسط القاهرة ، وقاموا بتحريك جيوش كبيرة في أنحاء البلاد حسب تطورات الحـــــرب . وأراد الملك الجديد فاروق وكان فتى مدللا يحب اللهـــو أن يؤكد وجوده باسم دولة مصرية ذات سيادة ، فعين في عام ١٩٤٣ أحد مرشحيه وهو حســـين سري باشا رئيسا للوزراء دون استشارة السلطات البريطانية . ولكن السير مايلز لامبسون الســـــفير البريطاني اراد عودة النحاس باشا باعتباره باني التعاون الانجليزي المصري — ولـكي يبين السفير من هو الآمر النـــــاهي أمر كتيبة مدرعة بريطانية باقتحام قصر عابدين وتوجيه مدافعها نحو مقر اقامة الملك ، وبهــــذا أرغم الملك فاروق على قبول من اختاره السفير البريطاني .

ان هذا العمل المتعجرف كان فى الواقع ايذانا ببداية النهاية للتسلط البريطانى فى مصر . فما كاد نبأ الاهانة التى لحقت بكرامة مصر ينتشر فى البلاد حتى أقسم ضابط شاب من سلاح المدفعية له بنية لاعب كرة امريكى وابتسامة جذابة وعينان ساكنتان أن يثار لما لحق بكرامة مصر الوطنية من مهانة . ولقد شكل جمال عبد الناصر مع مجموعة من اخوانه الضباط الذين يشاطرونه أفكاره جماعة تؤيد الملك نحو هذه الغاية . ثم اتضح بمرور السنين للبكباشى ناصر وأصدقائه ان فاروق كان أكثر اهتماما بالنساء والقمار منه بالدفاع عن كرامة مصر وسيادتها . نعم ان حكومته اخذت القيادة فى تكوين الجامعة العربية وميثاق الامن العربى فى عام ١٩٤٥ ووطدت مركز مصر كالقوة الكبرى فى هذا التحالف . ولكن بعد انتهاء طوارىء الحرب بسنوات عديدة ما زالت القوات البريطانية تحتل ثكناتها القديمة فى القاهرة ، وكانت فى منطقة القناة قوات تزيد ثمانى مرات عما كان مسموحا به بموجب معاهدة ١٩٣٦ دون ما اعتراض من جانب الملك أو وزرائه . وفضلا عن ذلك ادرك ناصر الذى كان ضابطا اشترك فى الحرب العربية الاسرائيلية مدى فساد وعجز الزعامة التى تهيئها الملكية المصرية للجامعة العربية فى هذا الاختبار الأول لقوتها المشتركة . وبالنظر الى ما كانت البلاغات الصادرة فى القاهرة تواصل اذاعته عن انتصارات مثيرة فى معارك ناصر يعرف انها انتهت بهزائم مزرية ، فقد صمم على التخلص لا من البريطانيين وحدهم ولكن كذلك من الملك ومن الساسة الفاسدين من حوله .

ولكن السخط الذى كان يتزايد ضد استمرار احتلال القوات الاجنبية لمصر لم يقتصر على مجموعة ناصر من

الضباط الاحرار . فبعد بناء القواعد البريطانية اثناء الحرب بدأ الاحساس بوجود موجة عميقة خطيرة من الشعور المعادي للبريطانيين . وقد حاولت بريطانيا مواجهة هذا بسحب قواتها من القاهرة عام ١٩٤٦ ، وعرضت سحب كافة القوات من مصر في العام التالى ، ولكن ظلت الامور في ركود نحو خمس سنوات ، عندما عرضت بريطانيا على مصر في اكتوبر عام ١٩٥١ حلفا للدفاع عن الشرق الاوسط تقوم فيه قيادة مشتركة مكونة من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ومصر بالاشراف على القواعد البريطانية في قناة السويس . ولكن هذا الاقتراح كان أبعد من ان يقبله المصريون : اذ كان الرأى العام ولا سيما بين الطبقات المتعلمة مصمما على تجنب تكرار التجربة التعسة التى مرت بها مصر عندما استخدمت مرتين في خلال خمسة وعشرين عاما مسرحا لحروب لا يد لها فيها .

ونتيجة لهذا اشتغل فاروق وحكومته التى رأسها النحاس مرة اخرى الفرصة للتظاهر بالوطنية بهدف التأثير في أشد الوطنيين المصريين حماسة ، فاعلن رفض المقترحات البريطانية على الفور ، والغيت باجراء من جانب واحد معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر . وفى نفس الوقت بدات جماعات من الفدائيين بتشجيع السلطات المصرية حملة من أعمال العنف ضد القوات والمنشآت البريطانية فى منطقة القناة وسحب العمال المصريين من كافة القواعد البريطانية .

وفى يناير التالى هدمت القوات البريطانية قرية في منطقة القناة بعد أن رفض سكانها تسليم مواطنين نسب اليهم قتل جنود بريطانيين في الاسماعيلية . فثارت في

القاهرة عاصفة عنيفة من الاحتجاج ، حيث أحرقت الجماهير الغاضبة فندق شبرد وبعض الأندية وبنك باركليز بين عدد من المباني المرتبطة في الذهن المصري بالجالية البريطانية ، حتى قتل اثنا عشر من أفرادها أو أحرقوا في أعمال العنف .

كان فاروق يحصد الآن نتيجة التظاهر بالوطنية الذي افتعله قبل ثلاثة أشهر فقط . فسرعان ما انتابه الذعر حتى أعلن الأحكام العرفية وأقال النحاس مع وزراء آخرين عرفوا بتشجيع المظاهرات ، وعين محسوبه على ماهر رئيساً للوزراء . وقد اعتبرت تصرفاته تملقاً لبريطانيا لكي تحميه ، بل بدا عندما استأنفت بريطانيا المفاوضات مع على ماهر حول مستقبل القواعد في منطقة القناة أنه كان يسعى للتسويف حتى يستحيل على بريطانيا سحب قواتها من منطقة القناة ، لأن وجودها على مقربة يؤدى الى انقاذه في حالة أى تهديد النظام الملكى .

وبعد ان طالت المفاوضات شهوراً عدة دون جدوى ، قرر ناصر وزملاؤه توجيه ضربتهم . وقد أقنعوا اللواء محمد نجيب وهو قائد محبوب موفور الاحترام وله سجل ممتاز في الحرب العربية الاسرائيلية ، برئاسة لجنة من اثنى عشر فردا عهد اليها بمهمة رسم التفاصيل النهائية للضربة .

وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استولى نجيب وناصر على السلطة باسم الجيش وأمروا الملك بالتنازل عن العرش ومغادرة مصر . وقد تردد فاروق أول الأمر على أمل أن يتدخل الجيش البريطاني لانقاذه . ولكنه عندما أدرك انه لا أمل في مناصرة من هذه الناحية قبل مطالب نجيب ، وفي مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ غادر الاسكندرية آخر حاكم من

سلالة محمد على على ظهر اليخت الملكى وسط فرح عارم من رعاياه .

وقد بقي الجيش بعيـــدا عن الحكم خـلال الاسابيع الستة الأولى ، واستمر على ماهر رئيسا للوزراء . ولكن في سبتمبر وضع ناصر نهاية لهذا التناقض . فتقلد نجيب رئاسة الوزارة ومنصب القـائد الاعلى ، ووضعت جميع السلطة في ايدى لجنـــة الاثنى عشر التى سميتـه مجلس قيادة الثورة ، وعندما استتب الأمر بالتدريج لحـكام مصر الشبان الغيت الأحزاب السياسية القديمة واعتقل زعماؤها وحلت محلها هيئة التحرير . ثم الغيت الملكية رســـميا في يونيو ١٩٥٣ . واصبحت مصر جمهورية برئاسة نجيب الذى تولى رئاسة الوزارة ايضا ، وناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية .

لقد توطدت الآن دعائم نظام الحكم الجديد الى الحد الذي يسمح باستئناف المفاوضات حول القـواعد في منطقة قناة السويس . وقد بدأوا بالتخلى عن دعوى السيادة على السودان وهو ما كان فاروق يصر عليه ، فانتهزت بريطانيا الفرصة لـكى تنهى وصـــايتها على السودان وتعترف باستقلاله . ولكنها اخفقت في انتهاز نفس الفرصة لوضع نهاية لاحتلال منطقة القناة وعادت الى مماطلاتها الســـابقة . فكان رد مصر هو استئناف الهجمات الفدائية على القوات البريطانية . وتجمد الموقف حينا . ثم زاد تعقدا بالصراع على السلطة الذى قام بين ناصر ونجيب ، الذى بدا انه اقل رغبة في ان يكون رئيسا صوريا مما توقع مجلس قيادة الثورة وكان يقود حملة لاجراء انتخابات في تاريخ مبكر . ومهمـــا يبدو هذا ديمقراطيا فان مجلس قيادة الثورة كان يعرف ان نتيجته

ستكون عودة الأحزاب السياسية القديمة الى الحكم . وبدلا من السماح بحـــدوث هذا ، فقد قرر ناصر فى فبراير ١٩٥٤ انه ينبغى له ان يظهر علنا ويتقلد رئاسة الوزراء . وقد ترك نجيب رئيسا للجمهورية . ولكن لم تنقض ثلاثة أيام على أعلان هــذه التغييرات حتى قامت المظاهرات فى القـــاهرة تطالب باعادة نجيب واضطر البوليس الى اطلاق النار على الجماهير . وعند هــذه النقطة أبدى ناصر الدهاء الرصين الذى سوف يستخدمه فيما بعد فى ازمات اكبر عرضت له فى زعامته . فقلد نجيب رئيسا للوزراء ، واعلن ناصر ان الثورة قد انتهت وأن الجيش سوف يعـــود الى ثكناته وسوف تجرى الانتخابات وتعود الحياة السياسية الى ما كانت عليه من قبل . وبعبارة أخرى سوف يعـــاد انتخاب الوفد والعصابة القديمة وسوف يكون نجيب اداة عودتهم .

كانت النتيجة مطابقة لما رسمه ناصر . فقد عاشت مصر فى دوامة مدى ستة اسابيع . وادان مجلس قيادة الثورة نجيب باعتباره اداة السياسيين القدامى. واضربت النقابات وطالبت بمقاطعة الانتخابات . وقامت مظاهرات ضد انســـحاب ناصر . وكان لنجيب مؤيدوه ايضا ومعظمهم من طلاب جامعة القاهرة . ولكن بحلول منتصف ابريل كان واضحا أن انصار مجلس قيادة الثورة كانوا هم الاقوى بكثير . فرضخ نجيب لما لابد منه وقبل أن يصبح رئيسا للدولة بلا سلطة وأن يكون فى الواقع محدد الاقامة فى قصر عابدين . وعاد ناصر الى رئاسة الوزارة باعتباره حاكم مصر الفعلى ، واعلن أنه لن تجـــرى انتخابات لمدة ثلاث سنوات .

وسرعان ما استقر راى الحكومة البريطانية على الاثر

على ان متطلباتها الاستراتيجية تحتاج الى اعادة توزيع قوات بريطانيا المقـــاتلة فى جيوب صغيرة متنقلة حول البحر الأبيض المتوسط بدلا من تركيزها فى منطقة القناة. فأوفدتنى الى القاهرة فى سبتمبر ١٩٥٤ لعقد المعاهدة الانجليزية المصرية التى وافقت بريطانيا بمقتضاها على سحب جميع قواتها من القناة . وقد تسلمت مصر نصف القواعد ، على أن يتولى مقاولون مدنيون بريطانيون ادارة النصف الآخر على أساس انها مخازن وورش لخـدمة المعدات البريطانية . وفى موجة الفرح الشامل بان تراب مصر سوف يتطهر أخيرا من القوات الأجنبية ، استمد ناصر القوة الكافية لعزل نجيب كليا ، وتقلد هو نفسه فى نوفمبر رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة .

هكذا أصبح ناصر الحـــاكم الأعلى فى مصر . وفى خارج مصر بدأت مكانته تزداد كزعيم ثورة جديدة ورمز كرامة جديدة عن طريق استقلال كافة العرب .

الفصل التاسع والعشرون :

الجمهورية العربية المتحدة والمنفصلة

كان المفروض ان تبدأ معاهدة ١٩٥٤ عهدا جديدا من الفهم المتبادل بين بريطانيا ومصر ، ولكن منذ البداية تحول شهر العسل الى مرارة . فقد رفضت بريطانيا تزويد ناصر بالاسلحة التى كان يحتاج اليها بدعوى ان القوى الغربية اتفقت على حفظ التوازن فى شحنات الاسلحة بين العرب واسرائيل . وهكذا اعلن ناصر فى سبتمبر ١٩٥٥ بين ارتياع العالم الغربى انه سوف يشترى الاسلحة من الكتلة السوفييتية . ومنذ ذلك الحين تحركت الاحداث بسرعة مخيفة نحو صدام مباشر بين مصر وبريطانيا . فقد كان السير انتونى ايدن رئيس وزراء بريطانيا قد رأى ان يد ناصر وراء كل نكسة اصيبت بها بريطانيا فى الشرق الاوسط . ولكن الحقيقة ان عبد الناصر كان اكثر اهتماما بالاصلاح الدستورى والتنمية الاقتصادية فى مصر منه باثارة المتاعب المزعومة. ففى يناير ١٩٥٦ أعلن الدستور الجديد ، وبعد ذلك بخمسة شهور انتخب ناصر بالاجماع رئيسا للجمهورية والسلطة التنفيذية . وفى ميدان الاقتصاد كان اكبر مشروعاته طموحا هو مشروع اقامة سد جديد على النيل جنوبى أسوان بهدف زراعة ملايين الافدنة الصحراوية

المعطلة وتوفير قوة كهربائية لاقامة صناعات جديدة فى مصر . وكانت امريكا وبريطانيا بالاشتراك مع البنك الدولى قد عرضت المساعدة فى تمويل هذا المشروع الضخم الحيوى ، سبقا لاية عروض من جانب روسيا .
ثم فجأة أعلن فوستر دالاس وزير خارجية امريكا فى ١٩ يوليو ١٩٥٦ ان حكومته ألغت مساهمتها فى السد العالى ، ولم تلبث بريطانيا ان اقتدت بها . فلم يمض أسبوع حتى أعلن ناصر ازاء ما رأى انه محاولة للضغط عليه لرفع الحصار المفروض على اسرائيل تأميم الشركة الانجليزية الفرنسية لقناة السويس .

كان رد الفعل من جانب بريطانيا وفرنسا عنيفا . فقد حشدت فى البحر الأبيض المتوسط قوة مشتركة كبيرة من الوحدات البرية والبحرية والجوية . وبذلت محاولات دولية جاهدة لوضع القناة تحت اشراف هيئة دولية زاعما بأن مصر لن تستطيع ادارة القناة بنفسها ، ولكن سرعان ما ثبت بطلان هذا الزعم ازاء ازدياد حركة المرور فى قناة السويس التى ارتفعت الى ارقام قياسية تحت اشراف الادارة المصرية .

وعلى الرغم من قبول مصر للاتفاق الذى تم التوصل اليه فى مقر الأمم المتحدة بنيويورك بين وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا ومصر والذى يقضى بقيام ما سمى بجمعية المنتفعين بقناة السويس بتحصيل رسوم المرور وتخصيص الايراد لهيئة القناة المصرية الجديدة — على الرغم من هذا فان الحكومة الفرنسية كانت مصممة على الدخول فى مواجهة مع الرجل الذى عدته مسئولا عن كل متاعبها فى شمال أفريقية وخصوصا الجزائر ، وهكذا أعدت فى السر خطة لقيام اسرائيل بغزو سيناء على ان

تتدخل فرنسا للاستيلاء على القناة بدعوى حمايتها من اضرار الحرب . وسارعت بريطانيا فى المشروع الفرنسى عندما غزا الاسرائيليون الأرض المصرية فى ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ ، فكانت بالقنابل للقنابل على المطارات المصرية وانزال قواتها فى بور سعيد وفى منطقة القناة هى التى مزقت بذلك اتفاقية عام ١٩٥٤ مع مصر .

ولكن هذا العمل الجنونى اخفق فى القضاء على ناصر . فان ضغط الرأى العام العالمى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة تجلى على أشده وفرض انسحاب القوات الانجليزية والفرنسية والاسرائيلية التى استولت على منطقة القناة وشبه جزيرة سيناء . وهكذا اصبح ناصر بطلا فى أعين العالم العربى كافة ، وغدا اسمه مرادفا للانتصار على الامبريالية .

وبنهاية عام ١٩٥٧ كان نفوذ ناصر قد بلغ الذروة ، خصوصا فى سوريا . كانت سوريا منذ عام ١٩٤٩ تهزها سلسلة من الانتفاضات السياسية والانقلابات لم يكن آخرها ثورة اديب الشيشكلى الذى حكم خمس سنوات وجاء سقوطه نتيجة ثورة عسكرية قام بها الجيش الذى اعاد شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية ، وظل الجيش يشغل مقعدا خلفيا مدى اربع سنوات .

ولكن سوريا لم تجد الاستقرار الذى كانت تتوقعه بعد سقوط الشيشكلى وعودة الحكم المدنى . فان حزب البعث الذى أسسه ميشيل عفلق عام ١٩٤٠ لتحقيق وحدة مثالية تضم سوريا ولبنان والعراق والاردن ما لبث أن بدأ يفقد قوته السابقة . ثم ان البعثيين انقسموا الى مجموعات ثلاث ، واحدة تحبذ الاتحاد مع مصر ، وواحدة تؤيده مع العراق ، والثالثة

تريد الاستقلال عن الاثنين .

وهنا استفادت الشيوعية من هذه الانقسامات ، وعندما ساءت سمعة الغرب بعد الهجوم الانجليزي الفرنسي الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦، اختار الروس سوريا لتكون أول هدف لهم في حملة التغلغل التي كانوا ينشدونها . فسارعوا يعرضون تقديم الاسلحة والمعونة الفنية ، وعندما تقلد عدد من الشيوعيين المعروفين مناصب كبيرة في الحكومة ، بدأ عبد الناصر وانصاره في دمشق يدركون ان سوريا في خطر من أن تصبح تابعا لروسيا . وفي نفس الوقت بدأت مكانة ناصر تقترب من أوجها ولا سيما في الجيش السوري . وفي أول فبراير ١٩٥٨ وقع شكري القوتلي هو وناصر على اتفاق يوحد بين مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة . وانتخب ناصر على الاثر رئيسا للوحدة .

بدا الآن أن زعامة ناصر للعالم العربي غدت مكفولة . وعندما قضى عبد الكريم قاسم في نفس السنة على على الملكية العراقية وعلى نوري السعيد الخصم العربي الرئيسي لناصر ، بدا ان الجمهورية العربية المتحدة قد تضم بعد قليل منطقة الهلال الخصيب .

ولكن عبد الناصر لم يحسب حسابا للاختلاف الواسع بين المصريين وشعوب سوريا والعراق . فخلافا للمصريين الذين تقوم حياتهم الزراعية والاجتماعية على الاستقرار والوئام بين الحاكم والمحكوم ، كانت تقاليد السوريين والعراقيين نابعة من الحياة القبلية حتى أصبحت خليطا غريبا من الاقطاع والديمقراطية . واذا كانت ظروف مصر حيث الثروة كانت مركزة في أيد قليلة

نسبيا قد اقتضت التأميم ، فان سوريا كانت تضم الالوف من صغار الراسماليين الذين يستثمرون مدخراتهم في الصناعة ، كما ان التجار السوريين وارباب المهن منتشرون في أرجاء العالم العربي الى جانب اللبنانيين والفلسطينيين يديرون ويملكون أعمالا من كل نوع وحجم . وهكذا فعندما اعلن ناصر تأميم الصناعة في سوريا كما في مصر ، حدثت معارضة عنيفة في دمشق ، حيث أصبح الالوف من صغار الراسماليين والمدخرين مهددين بضياع مدخراتهم . يضاف الى هذا ان عبد الناصر اعلن في اغسطس ١٩٦١ سحب جميع الوزراء السوريين من دمشق الى القاهرة حيث يدار حكم سوريا في المستقبل . ولقد بدا هذا شيئا كثيرا جدا بالنسبة الى الموالين لمصر ، فقدم بعض الوزراء استقالاتهم ، وانتهى الامر بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة .

وفي تونس ايضا جعل ناصر من الحبيب بورقيبة عدوا لدودا بمنح الحماية والتأييد الادبي لعدوه اللدود صالح بن يوسف . وفي الاردن والسعودية كانت انشطة انصاره ضد حسين وسعود محل الاشادة من راديو القاهرة .

لكن من بين جميع الذين جعلهم ناصر اعداء له كان اعنفهم عبد الكريم قاسم في العراق . فبعد الثورة بشهور قليلة بدأ قاسم يشك في ان ساعده الايمن عبد السلام عارف يتآمر مع ناصر ، فطرد عارف على الفور ، ولكن في أوائل عام ١٩٥٩ قامت ثورة مواكبة لمصر في وحدات الجيش العراقي بمنطقة الموصل . وبعد قمع الثورة اعلن قاسم أن عبد الناصر هو العدو رقم « ١ » في العراق ، واشتدت الحملات بين البلدين الى درجة لم تبلغها من قبل . وكان من حسن حظ ناصر والعالم العربي ان

سياسة قاسم الموالية للشيوعيين اغضبت الجيش ، وفى فبراير ١٩٦٣ وقع انقلاب فى العراق أطاح بقاسم واقام حكومة يراسها عارف .

بعد ذلك بشهر اقتفى الجيش السورى اثر العراق واخرج (الانفصاليين) من الحكم . وهكذا ، مع الانقلاب الموالى لمصر فى اليمن والذى أطاح فى سبتمبر ١٩٦٢ بالامامة البالية ، ومع تقلد احمد بن بلا لرئاسة الوزارة فى الجزائر فى نفس السنة ــ بدا ناصر مرة اخرى يتمتع بتأييد شعبى واسع النطاق بين العرب . وتتويجــا للعملية ، وافقت مصر وسوريا والعراق فى ابريل ١٩٦٣ على اقتراح سورى باقامة ما سمى بالاتحاد الفيدرالى بين البلاد العربية الثـلاثة ، تكون له سياسة خارجية مشتركة ونظام دفاعى موحد .

على انه مهما يكن من مصير حركات الوحدة والانفصال المتكررة بين الدول العربية ، فهناك مجال استطاع ناصر ان يمارس فيه تأثيره ومكانته وان يلعب دورا بارزا كزعيم للملايين غير الملتزمة بمعســكر معين فى افريقيــا وآسيا ، الا وهو توجيه سياسة مصر الخارجية على طريق الحياد ، بعيدا عن أى التزام حيال كتلتى القوتين الأعظم .
فمنذ أن قــرر ناصر تخليص مصر من كافة القــوات البريطانية ، كان مقتنعا بانه لابد لمصر من انتهاج سياسة الحياد مهما يسبب له هذا المسلك من صعاب من ناحية الحصول على أسلحة من الغرب ، لانه بدون الحياد لا يمكن ان يكون هناك استقلال حقيقى . وبعد لقائه الاول مع المارشال تيتو ، الذى اتخذ ناصر من تجربته الاشتراكية فى يوغوسلافيا نموذجا للنظام الاقتصادى فى مصر ، عرف أن الحياد يمكن الافادة منه جيدا . ذلك انه ما دام تيتو

قد استطاع أن يفيد من المنافسة بين الغرب والشرق دون أن يتورط مع أحدى الكتلتين الشيوعية أو الغربية ، فان هذا فى مقدور مصر أيضا . وهكذا استطاع ناصر باستغلال التهديد الشيوعى لسوريا والعراق منذ عام ١٩٥٨ ، وبهجماته الضارية على قاسم ، اقناع الولايات المتحدة بمساعدته كدرع ضد التسرب السوفييتى فى الشرق الاوسط ، وأن يحصل فى نفس الوقت على معونة عسكرية وفنية من الاتحاد السوفييتى لتعزيز قواته وبناء السد العالى .

وفضلا عن ذلك فان عبد الناصر بعد مؤتمر الشعوب الافرو ـ آسيوية فى باندونج عام ١٩٥٥ ، تصور دور مصر فى الشئون العالمية على انه دور قيادى ، لا للدول العربية فحسب ، ولكن كذلك للعالم المحايد بأسره فى افريقية وآسيا . ومنذ ذلك الحين ركز اهتمامه على قارة افريقية الناهضة . وهكذا فتحت جامعة القاهرة الابواب واسعة للطلاب الافريقيين ، وأنشىء المجلس الأعلى للشئون الاسلامية للعمل على نشر الاسلام فى الدول الافريقية . والحق أنه ما من بلد أفضل من مصر موقعا من النواحى السياسية والجغرافية لتحقيق النجاح فى بلوغ هذه الغاية ، اذ هى المعبر البرى بين افريقيا وآسيا ، وتراثها التعليمى والثقافى والروحى هو بمثابة مغناطيس قوى لجذب الملايين غير المتعلمة فى القارة الضخمة ، وهى رسالة ارشاد جليلة ، وعامل استقرار كبير فى المعترك الدولى الراهن .

●

فهرس

صفحة

القسم الرابع : المحنة والنصر

القسم الخامس : التفوق التركى

القسم السادس : ريح التغيير

القسم السابع : سراب الحرية

كتاب الهلال القادم :

شــــكوى الموظف الفصــــيح

●

تأليف
يوسف الشارونى

يصدر ٥ مارس ١٩٨٠

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London. S.E. 26
ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL



هـذا الكتاب

الجزء الثانى

انتونى ناتنج سياسى انجليزى اشتهر بالصدق والوقوف الى جانب الحق والصلابة فى الرأى ، وعندما وقع الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ احتج على ذلك العدوان واستقال من وظيفته وكان وزيرا للدولة للشئون الخارجية فى وزارة انتونى ايدن ، ولم يغفر اليهود له موقفه الى جانب مصر والعرب فطاردوه ولكنه لم يحفل لهم واصدر كتابه « العرب » وقص فيه تاريخ العرب باسلوب سهل موجز ممتع بادىء من العصر الجاهلى ومنتهيا الى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ·

وفى الفصول الخاصة بالعصر الحديث وقف ناتنج الى جانب الحق العربى وكشف مخصصت اليهود بالتآمر مع قوات الاستعمار لانتزاع فلسطين من ارض العرب وتسليمها لليهود بالخداع والكذب ، كل ذلك فى اسلوب علمى دقيق مؤيد بالوثائق لهذا اختار الهلال هذا الكتاب ليهديه الى قراء العربية على جزءين ·

وهذا هو الجزء الثانى ·

[redacted]